سعد الله ونّوس

عن الذاكرة والموت

نصوص

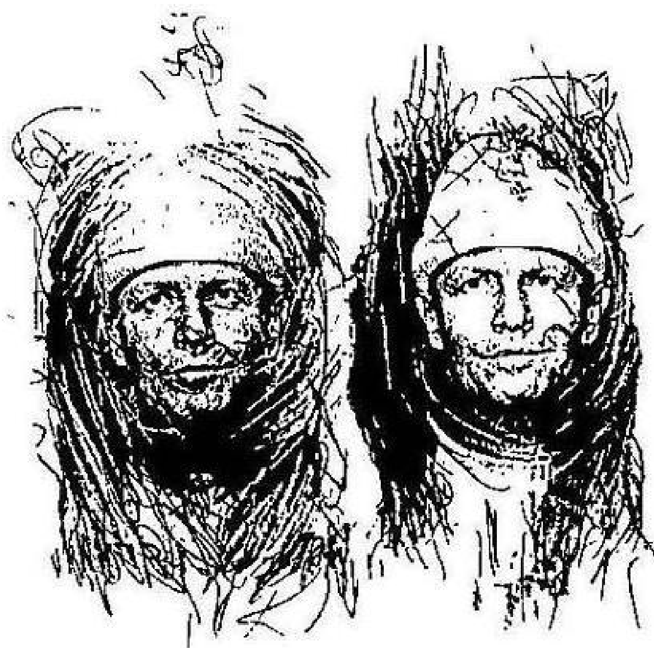


الأهالي

سعد الله ونّوس

عن الذاكرة والموت

نصوص



نصوص قديمة ومهملة

★ الورم

★ الهجرة من الغابة

★ المشاجرة

★ هكذا وجدت الهررة

★ عينان

★ الأجداد

الورم

كان هارون يقول لامرأته كل مساء تقريباً، وهو يتناول عشاءه:

ـ سوف يصبح جارنا غنياً. الزبائن يتدفقون عليه منذ الصباح حتى مغيب الشمس. لا أمرّ مرة أمام حانوته، إلا وأراه مكتظاً بالشارين.

وكان يسعل كلما فرغ من عبارته، وتفترشهيته لتناول الطعام. هارون له عينان رماديتان، مبلوعتان إلى باطن، تلفُّهما أجفان سميكة حمراء، وتنبثق منهما نظرة، حتى امرأته لا تشعر أمامها بالارتياح. وكان يتذمر دائماً من طعام زوجه، ومن الشمس، والمطر، وعطاء حقله. وامرأته ذات الوجه الرخو الكئيب، والنظرة الضائعة، لا تذكر أنه بشَّ لها مرة، أو ابتسم. وكانت قد رأت صهرها يغازل أختها الصغرى، ويداعبها، بل ويلعب معها أحياناً كطفل صغير.

وفي يوم، وكان الطقس رائعاً، شعر هارون فجأة أن قدمه تتورم. ولم تكن تنقصه الأسباب ليغضب، ويسبّ. نادى امرأته خائفاً، وأشار إلى ما أصابه، لكن المرأة لم تنبس بكلمة واحدة. حدقت في القدم المتورمة، وانخرطت في بكاء صامت حزين، فانهال عليها هارون سِباباً، وأراد أن يضربها، لولا أن الورم كان يزداد ويتسع، كأنه جنون ألمَّ بجميع خلاياه. تورّمت الساق أيضاً، ثم الفخذ، ثم البطن. ورغى فمه، وتلامح في النظرة الجاحظة خلف أجفانه اللحمية الحمراء رعب محتقن. كان أنبوباً من المطاط يُنفخ بالهواء. وظلت المرأة صامتة تبكي، بينما ازداد ارتخاء وجهها الكئيب.

تلك حادثة غريبة، أثارت اهتمام الناس، وجعلتهم يسملون مشفقين على هارون.. رائين مصيره، لا سيما حين فشل فيما بعد كل نطاسيي بلده،

والبلدان المجاورة من شفائه، أو حتى تخفيف أورامه. ومع كل فشل، كان هارون يزداد سخطاً وتشكياً. وفي أحيان، يجدّف بقسوة تجعل امرأته ترتعد من الجذور، وتتمتم مستغفرة، لاعنة إبليس وغوايته. وقد زار الشيخ رجب، الذي صيّر البلوط زيتوناً أخضر، وكذلك الشيخ إبراهيم، الشهير بتقواه، لكن ما كان الورم ليتراجع أنملة، مما أشعل في صدره التذمر والسخط أكثر فأكثر.

ومع الأيام، امّحى الخوف، وتعود الناس الحادث، حتى نسوا هارون القديم. وانزوى الرجل المتورم في داره، متدثراً بنظرة يُفخّمها الغلّ، وفيض من الأفكار المتبرمة والهواجس الغريبة. فمثلاً كان يفكر عندما تمضي زوجته لتقوم بأعمال الحقل، أن جميع السكان قد تركوه في زاويته مهملاً، ومضوا خلسة إلى مكان قصيّ هاربين من زلزال، سيدمر كل ما هو قائم. وكانت حواسه تتنبه إلى حد الشعور فعلاً بأن الأرض تنتفض وتهتز. وفي أحيان كان يحس أن الريح قد هبّت من أقاصي البحار، لتفري عظامه، وتقتله. والفئران لا تطل من جحورها، إلا لتقرض أصابعه حين تغفل عيناه قليلاً. والكلب يتثاءب فكاه شهوة إلى لحمه الأصفر المتورم. والرب جزار سيهاجمه ليلاً بالساطور، وهو يقهقه كاشفاً عن أسنان صفراء. ومراراً كان يفكر بجاره، الذي يزدحم حانوته بالمشترين، ويتمتم بأن العالم وحوش وذباب وهوام. حينئذ كان يكظّ صدره الحنق، فيزحف إلى الدار، ليجلس تحت شجرة الخروب، التي لم تمحل رغم ازدرائه لها. وعصر يوم.. بينما كان ملقى تحت الشجرة ينظر إلى أورامه ساخطاً، فاجأ خلوته عجوز طويل القامة، ذو وجه حاد الملامح، وعينان نفادتان، لكنهما مغسولتان بعذوبة آسرة. يتوكأ على عصا طويلة متآكلة الطرف، وينحني ظهره قليلاً تحت كيس يبدو أنه ليس خفيفاً. وبادره بصوت يذكر بغناء الأمهات:

ـ السلام عليك يا صديق!

بعد الدهشة، طفا على عيني هارون، وهو يرمق العجوز، اشمئزاز وقح، ولم يجب، بل سأل جاف اللهجة:

ـ ماذا تريد؟!

لم يغضب العجوز؛ بل على العكس، غاصت نظراته أعمق في العذوبة، وقال:

ـ لقد حييتك.

لكن هاروناً عاد يسأل أكثر جفافاً:

ـ وإذن.. ماذا تريد..؟

ابتسم العجوز، ووضع كيسه على الأرض، فانبعث منه رنين، ثم جلس هو الآخر جوار هارون، وبرفق أخذ يتحسس يده الغليظة المتورمة غير آبه بذهوله. وإذ سحب هارون يده أخيراً، قال العجوز جاداً:

ـ أتبيعني هذه اليد؟

ـ ماذا تقول؟

صرخ هارون باندهاش، فكرر العجوز رؤوم الصوت:

ـ أسألك، إن كنت تبيعني يدك؟

عندئذ احتدّ هارون:

ـ اسمع أيها الرجل. لا ينقصني النكد.. ولا المتاعب أيضاً. فوفّر سخريتك، وإلا سمعت ما لا يسرك.

ـ لكنني جادّ.

ـ جادّ!!

ـ نعم جادّ.. وإلا ماذا تظن؟ (وترقرقت ابتسامته) سامحك الله.. أأنا من جنس الساخرين العابثين!

تفرّس هارون في وجه العجوز لحظات، ثم طاف مكر ناقم على قسماته، وسأل:

ـ طيب.. إذا كنت سأبيعها. فكم تدفع؟

أجاب العجوز باهتمام:

ـ مئتي ليرة ذهبية.

- كم؟ (فاض وجهه بالدهشة، وهو يسأل)
- قلت لك مئتي ليرة من الذهب.
- مئتي ليرة من الذهب! وهل تملك هذا المبلغ؟
- معي أضعاف هذا المبلغ. ألا ترى كيسي؟ إنه مليء بالذهب.

وبحركة شرهة وسريعة، وثبت أصابع هارون تجسّ الكيس، ووسوس الذهب داخله، فغمره الذهول، حتى صار يتلعثم بالكلام:

- ولكن.. انظر.. إن يدي مريضة ألمَّ بها الورم الخبيث كباقي أعضائي. وما دفعته يمكن أن يشتري المرء به قصراً حقيقياً.

ابتسم العجوز، وقال:

- القصور؟ وما قيمة القصور؟ يدك ما تزال حية. وهي تساوي كل قصور الدنيا.

فالتمعت قبسة واهنة في وجه هارون، ورقَّ صوته:

- أتظن ذلك حقاً؟
- بالتأكيد إنني أظن ذلك.

وبعد برهات صمت، كان ينمو خلالها شيء غامض في دخيلة هارون، قال:

- وإذا أردت أن أبيع ساقي، فبكم تشتريها؟

فأجاب العجوز:

- بثلاثمائة ليرة ذهبية.
- ثلاثمائة!
- نعم..

وتمتم هارون منفعل الصوت:

- إن أطرافي وحدها ثروة حقيقية. ثروة لا يحلم بها المرء.. آه.. قل لي بحق الله.. هل أنت تسخر مني؟
- يا رجل.. إن شكوكك تؤلمني. أتريد أن أعدّ لك الثمن؟

وفاضت ابتسامة حبور على وجه هارون، وتحسس أطرافه بحنو ودهشة، وغمغم:

ـ لا.. لا أريد أن أبيعها.

وشردت عيناه برّاقتين في الأفق البعيد، بينما اختفى الرجل العجوز وكيسه.

في المساء.. وكم كان ذلك غريباً، بدأت الأورام تخفّ. وانغمر هارون يتأمل بذهول السماء المبهورة بالنجوم. وقد تذكر عندئذ فقط، أنه لا يعرف كيف دخل العجوز إلى الدار، ولا كيف مضى!

الهجرة من الغابة

كان القرد «كبران» لايحب أهله، ولايحترم بني جنسهِ من القرودِ. يظلّ بعيداً عنهم، لايعاشرهم، ولا يتردد الى مجالسهم. يعتقد أنه أرفعُ مقاماً منهم، ويتذمّرُ دائماً من وجودهِ بينهم، وحياته في الغابةِ..

ولم يكن يتحدث مع أحدٍ إلا بلغةٍ تتّصفُ بالامتعاضِ والتعالي.. وكان يقول دائماً، بأنه لم يُخلقْ ليكون بين القرودِ، وإنما ليعيشَ في تلك البلادِ الجميلةِ حيث يسكن «البشر».

لهذا كان يفكرُ دائماً في الهجرةِ من الغابةِ، والرحيلِ الى تلكَ الأمكنةِ، التي يعيشُ فيها الناسُ.. وكان يقولُ في نفسهِ: (عندما أصِلْ تلك البلاد، سأنسى الغابة، ولن يعرف أحد من هم أهلي، ولا أين عشت قبل ذلك، وعندئذٍ سأبدأ حياةً أخرى جميلةً وهنيئةً).

وسيطرت عليه الفكرةُ، فأخذ يخطّطُ لها نهارَهُ وليلَهُ. وعندما نضجَ كلُّ شيءٍ في ذهنهِ، حزم أمرهُ، وقرّرَ أن يسافرَ. كان يعتقدُ أن كلَّ شيءٍ سيكونُ جميلاً عندما يصلُ الى المدينةِ. وكلُّ ما ينقصه، هو أن يرتدي ملابسَ زاهيةً مثل الناس. وعندئذٍ يرحبون بهِ، ويعاملونه كواحدٍ منهم. فهو يحسنُ التصرفَ، ويعرفُ أشياءَ كثيرةً تميّزهُ عن القرودِ التافهةِ، التي تحتشدُ بها الغابةُ.

* * *

صباحَ يومِ الرحيلِ حاولَ أبوه أن ينصحهُ، ويثنيَهُ عن عزمهِ، قال له برقةٍ وحنانٍ:

- نحن أهلكَ يا كبران، ولن تجدَ من يحبُّكَ مثلنا، فأين يمكنُ أن تذهبَ!
أجاب «كبران» بلهجتِه المتعالية المغرورة:

- لم أخلقْ لأعيشَ بين القرودِ.. إني أضيعُ حياتي إذ أبقى معكم.
فقال الأب:

- ولمَ يا ولدي؟ . إذا كنت تجدُ أن حياتَنا بائسةٌ، فلماذا لا تساعدُنا على تحسينها وتبديلِ شروطِها؛ وبذلك تكون نافعاً لقومِك ولنفسِك؟..

- لا.. لن أضيِّع حياتي في الغابةِ. سأذهب الى المدينةِ، وأبدأُ حياةً جديدةً. لا أستطيعُ العيشَ بين هذه القرود الغبيَّةِ. انسوا أني كنتُ هنا، أو أنّكم تعرفونني. ولا تحاولوا اللّحاق بي، فلن أُجيبَ نِداءَ أيّ منكم.

بهذه الكلماتِ القاسيةِ ترك أهلَه، ومضى. وقد توسلَّتِ الأمُّ، وذرفت دموعاً غزيرةً، ولكن «كبران» لم يبالِ بها. وعندما ناولته صرَّةً من جوزِ الهندِ لتكونَ زوّادةَ الطريقِ، رفض أن يأخذها، وقال:

- لن أحتاجَها، لأني لن آكلَ بعد اليومِ من طعامِكم الكريه..

ثم اختفى في أدغالِ الغابةِ متَّجهاً نحو المدنِ البعيدةِ. وقد تعبَ كثيراً خلالَ رحلتهِ. كانت الغابةُ واسعةً، والمدينةُ بعيدةً.. وإذ شعَرَ بالجوعِ ، ندمَ لأنه لم يحملْ زوادتَه، لكن رغبته القويةَ في بلوغِ ذلك المكانِ الجميلِ، الذي يسكنُهُ البشرُ، ساعدتهُ على تحمُّلِ الجوعِ والتعبِ.

وبعدَ مسيرةِ يومين تقريباً، لاحت أمامَ عينيهِ بناياتٌ عاليةٌ، ترتفعُ فوقها المداخنُ والأسلاك، فخفقَ قلبهُ بشدَّةٍ، وهتفَ بسرورٍ:

- ها هي المدينةُ أخيراً. لم تبقَ إلا مسافةٌ قصيرةٌ، ثم أبدأ حياتي الحلوةَ الجديدةَ. أول ما ينبغي عليّ أن أفعَلَهُ، هو البحثُ عن ملابسَ أحشو جسمي بداخلِها، وأخفي الشَّعر الغزيرَ الذي يغطّي جلدي. بعدها سيمضي كل شيء بسهولةٍ. سأختلط بالناسِ فلا يعرفونَ أصلي. سأُصبحُ واحداً منهم.. أشاركهمُ الطعامَ، والحديثَ، والحياةَ البهيجةَ.

* * *

عندما وصلَ «كبران» إلى المدينةِ، كان النهارُ لم ينتصفْ بعدُ، وفي الشوارعِ زحامٌ من المارَّةِ والسَّياراتِ. وكان ذلك مدهشاً بالنسبةِ إليه، يحملقُ في كلِّ ما يراه بعينينِ مذهولتينِ. ولشدَّةِ التعبِ والدهشةِ والضجيجِ أحسَّ رأسَه يدورُ، وكأنه سيسقط بين لحظةٍ وأخرى. ولم يكنِ الناسُ يأْلَونَ به. كانوا يلقونَ عليه نظراتٍ باردةً، وأحياناً مستغربةً، لكن أحداً لم يتحدّث إليه، أو حتى يبتسم له.

واعتقد بادىءَ الأمر، أن سببَ إهمالِ الناسِ لهُ، هو أنهُ لايرتدي ملابسَ مثلَهم.. ولذا كان أهم ما يشغلهُ هو أن يجدَ ثياباً يرتديها، وبعدها سيصيرُ شبيهاً بهمِ، وتسيرُ الأمور كلُّها بشكلٍ حسن..

وخلالَ تجوالِهِ المتعب، وجدَ محلاً لبيعِ الملابسِ، فأسرعَ بالدخولِ إليه.

كان صاحبُ المحل، وهو رجلٌ ذو عينينِ ماكرتينِ، يقفُ وراءَ الطاولةِ منتظراً زبائنهُ. وقد بدا الغضبُ على وجههِ حينما رأى القردَ يدخلُ الى المحلِّ، فسأله باستياءٍ وخشونةٍ:

ـ ماذا تريدُ؟

أجابَ «كبران» بلطفٍ:

ـ أريدُ ثياباً أرتديها.

وحدَّق إليه التاجرُ لحظاتٍ، ثم انفجر يقهقهُ.. وقال:

ـ تريدُ ثياباً! قردٌ يرتدي ثياباً! قردٌ يلبسُ البنطلونَ، ويضعُ قبّعةً، و..

ولم يستطعْ أن يتابعَ الكلامَ، فتعالت قهقهتهُ أكثر. ولم يفهم كبران شيئاً، فأخذ يضحكُ مثله، لكن التاجرَ توقف فجأةً، وسأله:

ـ ألديك نقودٌ؟

ـ نقود؟

كرّر القردُ هذه الكلمةَ باندهاشٍ، فهو لا يعرفُ ما هي النقودُ. وحتى لو عرف، فإنه لم يكنْ يملكُ منها شيئاً. فقال التاجرُ:

ـ إذن تريدُ ثياباً، وليسَ لديك نقودٌ!

قال «كبران»:

- إني بحاجةٍ شديدةٍ للثيابِ. سيتغيَّر كلُّ شيء عندما ألبسُ ثياباً جميلةً.

وفجأة برقت عينا التاجرِ الماكرتان، كما يحدثُ عندما يجدُ المرء فكرةً جديدةً.. فقال له:

- اسمعْ. هنا.. نحن لا نعطي الثيابَ دونَ مقابل، وأنت لا تملكُ نقوداً. لكن يمكنُ أن نعقدَ اتفاقاً. سأعطيكَ ملابسَ مقابل خدماتٍ تقدّمها لي..

وعلى الرغم من أن «كبران» لم يدركْ ما قصدَ إليه التاجرُ؛ فقد شعرَ بالسرور، لأنه أخيراً سيحصلُ على ثيابٍ يرتديها. لهذا لم يتردَّد في الموافقةِ على العرضِ.

كانت فكرةُ التاجر خبيثةً. فبعدَ أن ألبسهُ بذلةً مضحكةً، ووضعَ على رأسهِ قبعةً، حبسهُ في قفصٍ مغلقٍ، ووضعهُ على الرّصيفِ أمامَ المحل. لم يكن «كبران» يعرفُ ما يحدثُ، لكن الناسَ، أخذوا يتجمعونَ حولَ القفص، ثم ينفجرونَ بالضحكِ. في البدايةِ حاولَ أن يكونَ لطيفاً، وكان يبتسم للجمهورِ المحتشد حولَ القفصِ مبدياً علاماتِ الكياسةِ والأدب. إلا أن الناسَ كانوا يزدادونَ ضحكاً.. وأحياناً كانوا يرمونَ إليه ببعضِ القطعِ النقديةِ، يجمعها التاجرُ كلَّ مساء، ويضعها في جيبهِ. أما الأطفالُ فكانوا يرمونهُ بقشورِ الموزِ؛ أو قطعِ الشوكولا. وشيئاً فشيئاً.. بدأ يدركُ «كبران» ما جرى له. فقد تحوَّلَ مهرجاً محبوساً في قفصٍ.. الناسُ يضحكون عليه؛ والتاجرُ يأخذُ الثمن مما يتجمعُ في القفصِ من قطعٍ نقديةٍ..

ولم يصبح «كبران» واحداً من هؤلاء الذين يسكنون المدنَ، وبدأ مع الأيام يتذكَّر خضرةَ الغابةِ، وأهله، فيشعرُ بالمهانةِ والحزنِ، وتسيلُ الدموعُ غزيرةً من عينيهِ.

المشاجرة

خرجا من الحفلة التنكرية يضحكان. «في كل البلدان والمجتمعات ثمة حفلات تنكرية». كانا كلحنين عذبين في أغنية متآلفة. يده تحيط كتفها، والرأسان يتلامسان في اتساق وحميمية. وكانا ما يزالان في ثيابهما التنكرية. هو يرتدي قناع خنفساء عملاقة يلتصق رأسها، الذي يغطيه شعر طويل ومشعث، بالجذع الممتلئ المكور ظهراً وبطناً. أما الرجلان فقصيرتان وملويتان قليلاً. وكانت الفتاة ترتدي قناع «نفرتيتي» بتسريحتها المميزة، وطول عنقها، وعينيها السوداوين البعيدتي الأغوار.

وكانا يغذان السير، ويتبادلان همسات لاهية تشبه التغريد أو العناق.

يقول لها:

ـ أعبدك.

فتجيبه:

ـ أحبك كما لم أحب طوال عمري.

يعقب:

ـ كل ليلة أحلم بك.

فتؤنبه:

ـ إنك خائن. أنا أحلم بك في النهار أيضاً.

وكانت خطواتهما تسوقهما نحو غرفته. تبادلا قبلة متعجلة، وهو يفتح الباب. دخلا معاً، وبكعب حذائه أغلق الباب وراءهما. وسط لمساتهما الحارة وعناقهما، بدأا يخلعان ألبستهما التنكرية.

كان أسرع منها. خلع قناع الخنفساء، والتفت نحوها. نظرت إليه،

وضحكت:

- أكنت ترتدي قناعاً مزدوجا!

وبالفعل بعد أن خلع قناع الخنفساء، ظهر تحته مباشرة قناع آغا عثماني.

وكانت هي أيضاً قد تخلصت من «نفرتيتي»، لكن قسماتها لم تنكشف، وظهر تحت قناع نفرتيتي نقاب أسود، لا تظهر منه إلا عينان عسليتان لهما تموجات ساحرة.

ضحك بدوره، وقال:

- وماذا عنكِ؟ ألا ترتدين أنت أيضاً قناعاً مزدوجاً؟

اندهشت وقالت:

- لا.. لا أذكر. متأكدة أنني لم أرتدِ إلا قناعاً واحداً.

ووسط الحيرة ونفاد الصبر، بدأت أصابع كل منهما تفك الأزرار، وتحل الأحزمة، فيما يغالبان هذا الوضع الغريب بضحكات عصبية لا تختلف كثيراً عن البكاء.

خلع قناع الآغا التركي، فبدا تحته قناع الإنكشاري. ومزق قناع الإنكشاري، فبدا تحته قناع المملوكي، ثم قناع بدوي، ثم قناع عبد، ثم..

أما هي فبعد النقاب، ظهر قناع امرأة إفرنجية، وبعد الإفرنجية قناع فلاحة، (حرص الرسام على أن يضع وشماً على الوجه، وأن يظهر الملامح غزيرة الفرح) وبعد الفلاحة، محظية في حريم تركي، ثم بدوية، ثم جارية، ثم أفعى، أو..

ألقى كل منهما عشرات الأقنعة، التي تكومت في الغرفة، فجعلتها تبدو مزدحمة وضيقة جداً. وكان كل منهما يتضاءل كلما خلع قناعاً. كانا يصغران ويذوبان. صار كل منهما في حجم قبضة اليد، ومع هذا كانا ما يزالان يجدان ما يخلعانه. وحين أسقط كل منهما آخر الأقنعة، وكان من الكلس الجاف، لم يبقَ منهما إلا قطرات محرورة وكثيفة القوام، انسكبت على الأرض، وسالت محملة بالغبار.

بعدئذ.. وفيما كان الصباح يتموج هادئاً في الشوارع المكنوسة، بدأت الاقنعة تتشاجر. وكالعادة.. بدأ الشجار مناوشة خفيفة، ثم احتد، ثم عنف، وثار الغبار، وانتشرت ضوضاء مدوية حول هذه الألوان والوجوه والمواد المتحاربة.

ورغم أن البواب سمع الضوضاء، ورأى قطرات مغبرة تسربت من تحت الباب، فإنه لم يحاول التدخل. هزَّ رأسه، وشرع يرتب في ذهنه، القصة التي سيرويها لسكان البناية مثيراً دهشتهم واستغرابهم.

هكذا وجدت الهررة

كانت عتمة خانقة مكتئبة.. وقال الفأر الطفل:

- مساكننا ضيقة ومخيفة يا أماه. «وتأتأ لحظة، ثم أضاف بدهشة» ما أوسع العالم فوقنا!

فقالت الأم حزينة القسمات:

- ولكن ثمة هررة فوقنا أيضاً..

سأل الفأر بحيرة:

وما هي الهررة؟

أجابت الفأرة:

- الهررة!.. «وغصت» آه.. هي فئران خانت الأصل.

- لم أفهم.. فئران خانت الأصل.. ما معنى هذا؟

فتملصت الأم:

- تلك حكاية قديمة ومؤسية. دع هذا، ولنخلد إلى النوم.

لكن الصغير ألح، ورفض النوم محتجاً بأصوات حادة مزعجة.. حتى رضخت الأم، وشرعت تحكي بصوت راعش ممصوص:

- في البدء يا بني.. كانت الأرض خضراء.. والنور يرفُّ على وجه الكون كابتسامات الأطفال.. وكانت جماعات الفئران تحيا في بحار من العذوبة الصافية. مرتعها الأرض الفسيحة، حياتها سلام وسكينة، وغذاؤها الحب الوفير. ولم تكن الخلافات التي تنشب نادراً لتكدر الصفاء، أو تعكر الهدوء.. بل كانت تذوب كلها بلا خثرات ضغائن أو أحقاد.. هكذا كانت حقب الأجداد.. ولكن ليت حالاً يدوم!

تنهدت متحسرة:

- في يوم ككل الأيام، بزغت الشمس فيه من خلف جبال الشرق، ثم انطفأت في بحار الغرب، ولد أربعة جرذان عمالقة. لكل منهم عينان، وفم مدبب، وفراء رمادي ناعم كالفئران.. كل الفئران ما مات منها.. وما ولد..

لقد لعن الأحفاد أمهم، إلا أن لفيفاً أشفق على مصيرها فيما بعد، وسماها أتعس الأمهات! كانوا يا بني منذ حداثتهم غريبي الأطوار، يتصرفون بطريقة غامضة.. فظة، ويضجون دون كلال بغناء ناشز جاف، لم يفهمه حتى الذين يعرفون أسرار الغناء وتراكيبه..

وكانت لعبتهم الأثيرة أن يجمعوا الصغار، فيجبروهم على الانحناء، ليتسلقوا أكتافهم بزهو عجيب، بادئين غناءهم الشبيه بلسع السياط. وإن يتأفف صغير أو جار فالويل له. كانت قبضاتهم الحديد المحمى. وكانت نظراتهم القحة الملتهبة.

.. وحين امتعض فأر يافع كان ينشد لفأرته الجميلة، خلال إحدى نزهاتهما، أغنية سماوية الإيقاع.. حنونة. انقضَّ الأربعة، وانهالوا عليه ضرباً وتمزيقاً، حتى غارت ذيول أغنيته الرقيقة في دبق الضجيج، وابتردت أطرافه بعد رجفة قصيرة شاملة. وقد ولولت الجميلة. أخفت عينيها وراحت تنحب.. وظلت إلى وفاتها تنحب.

بعد الحادث.. انتشر لغط واستنكار.. وفارت الدماء في عروق فأر شاب، عُرف عنه الإباء. فهاجمهم بلا حذر راغياً ثائراً.. لكنه لم يقاوم طويلاً.. كانت قبضاتهم الحديد المحمى.. فاعتلوا جثته الممزقة، وبدأوا غناءهم الشبيه بلسع السياط..

ومنذ ذلك الحين، تفاقم إحساسهم بذواتهم، وراحت أحلام مبهمة تتوقد في عيونهم الزجاجية. كانوا لا يهدأون ولا يترددون أمام حدود. غناؤهم الناشز البغيض يرجم الأسماع آناء الليل وأطراف النهار. وقبضاتهم تتدرب على وجوه الصغار، وفوضى جديدة تنسل إلى حياة الجماعة كتفاهة مريبة.

ومما زاد الاضطراب حدةً، حادثة مستغربة نبقت في أصيل يوم متألق وهاج. إذ التقوا عبر تجوالهم الاستعراضي فأراً غارقاً في سكون عميق، يتأمل ضياء الشمس والسماء، فعبسوا مدمدمين: (الزنديق اللعين.. إنه يتأمل ويفكر..)، ثم وثبوا عليه، وفصلوا رأسه عن جسده النحيل.. وشرعوا يتراشقون به عابثين.. متضاحكين، وهم يرددون: (كان يفكر.. أرأيتم.. كان يفكر حقاً!)

وحينئذ غاصت القلوب في الخوف والغضب، واتسعت رقعة اللغط، وغدا الحال وكسة ينبغي الخروج منها.

اجتمع حكماء القوم، وقرروا مناشدتهم سبيلاً إلى النظام. ذهبوا إليهم، وقالوا بهدوء وإخلاص:

- غرائب الأحداث تنطوي دائماً على إمكانيات متناقضة. وحسبما تلهمنا أفئدتنا، نقترب أو نبتعد عن أرباب الكون المقدسة. إن وجودكم القوي الخارق يمكن أن يصبح الدفاع المكين عنا، وأن يمد فسحة الأرض أمامنا. سودوا القوم، وناضلوا الريح والعواصف.. ذلك خير من العبث بالصغار.

بيد أن القذرين صرخوا:

- نحن القدر.. نحن القوة.. نحن الماضي والحاضر والمستقبل..

ثم قهقهوا بصلف واحتقار، وزعقوا فيهم راعدي الصوت، فأبلوا عظامهم، وفرقوهم هاربين مروعين..

تنامت الضوضاء بعد ذلك.. وكثرت أعداد المكتومين تحت أقدامهم المتطاولة أثناء الغناء.. وكان الغضب المألوم يحزّ نفوس فتية القوم. وإحساس العار الثقيل يحفزهم على المحاولة.. وفعلاً جربوا. كمنوا لهم في منعطف ظليل، ووقدة الغضب تحرق أوصالهم، لكن الوحوش - رغم المباغتة - أجهزوا عليهم، والتهموا بشبق مغتاظ جثث خمسة منهم. ولما انتشر النبأ المروع، وعنفتهم أمهم بازدراء مشمئز، وثبوا عليها بعيون دامية، وأنشبوا نيوبهم في جسدها المسن يمزقونه، ويمضغونه.

وأفعم التأثر عيني الفأرة بغشاوة من دمع سخين، فهتفت عبر الحكاية: «ألا لعنة الله على خيانة الأصل!»

ثم واصلت:

ـ ومنذ ذلك اليوم لم تعد تغذيهم إلا اللحوم الطرية.. ويوماً بعد يوم.. نهشت أفواه الفئران المرتعبة تراب الأرض، وغارت أسرابها عميقاً في دهاليز مجوفة باردة.. وضاقت الأرض، واختنقت بالخوف والظلام والرطوبة.. وانقشع الأفق.. وماتت الطمأنينة.. ماتت إلى الأبد.. وهكذا يا بني وجدت الهررة.

تلعثم الابن لحظة، ثم قال راجف النبرة:

ـ آه.. أماه.. إني خائف.

احتضنت الفأرة ابنها، ومسحت على رأسه بحنو غامر قائلة:

ـ لا.. لاتبتئس يا بني. فالهررة نفسها لم تنجُ من خيانة الأصل. وساد صمت ثقيل بدده الابن بعد حين:

ـ ولكن أنظل في عتمة هذه الجحور الكدرة.. آه ما أجمل الشمس! أماه.. إني أحب الشمس.. فأجابت الفأرة حازمة الصوت:

ـ تعلّم ألا تحب الشمس.. تعلّم ألا تنظر إليها..

ـ إنما..

ـ قلت لك تعلّم.. وكفى.

ثم عمَّ صمت لم ينقطع..

(١) استعمال صيغة العاقل مقصودة..

عينان

كانوا ثلاثة رجال. وجوههم مختلفة الملامح، لكن ملابسهم الموحدة تعطي الانطباع، بأنهم متشابهون جداً. يجب أن أضيف إلى ذلك، أن شواربهم الكثة، والتي تتدلى على جوانب الأفواه، تزيد الإحساس بالتشابه. لم يكونوا غاضبين. لم يكونوا فظين بشكل خاص. إلا أن البريق في عيونهم ينفر، تماماً كما في تلك اللحظات، التي تنبض فيها عروق الشهوة في جسد الرجل، وتنتعظ. كانوا هادئين دون برود. وقد أمسكوا بي بقبضات قاسية. تذكرت دفء البيت، وملابسي، وفخذي امرأتي، والساعات التي كنت أثرثر فيها بأمان، وبدا ذلك ماضياً سحيقاً، أو رواية قديمة... دخلت صحراء من الغرابة، والرمال الجافة. وتبلل سروالي، بينما عرتني الرجفة في ظهري.

أحياناً كانوا يتبسمون، وأحياناً كانوا يتحدثون بلغة غريبة، سمعتها لكني لم أتعلمها. لم يكن فيَّ أيُّ ميل إلى المقاومة. وكما يصيب مرض عضال جسداً عجوزاً، كانت المقاومة بلا معنى. أمسكوني، أحنوا رأسي، وضعوه على سندان من حديد صدئ، ثم انهالوا بالمطارق على رأسي. بدأوا بضربات ناعمة وهادئة. تذكرت كيف أداعب امرأة. تذكرت أستاذ اللغة العربية، وثانوية بني طرطوس. بعدها تذكرت مراحيض المدرسة. المطارق تهوي وتشتد. بدأت لا أفكر بشيء... المطارق تهوي. تحطمت الجمجمة. تناثر الدهن والعظم والدم. ومع دقات المطارق، كانت أيديهم تزداد شبقاً وعنفاً. كانوا يلهثون. أصبح الرأس نتفاً منثورة. لم أكن أعي شيئاً. لم أكن أحس شيئاً.

* * *

تعرق الرجال الثلاثة. خلعوا قمصانهم، وتنفسوا بعمق. تبادلوا السجائر، وأشعلوها. راحوا يعبّون منها بنهم. وفيما هم يلهثون، انتبه أحدهم إلى بريق، ثم اكتشف أن العينين رابضتان على الأرض بلا أجفان. تحملقان.. تشعان.. تومضان. انكمش جلده، وأخذ يدخن بشراهة. نبّه زميليه إلى العينين. الرجال الثلاثة سمروا عيونهم على الكرتين الزجاجيتين المحملقتين، وكانوا يتقلصون. اتسعت العينان الملوثتان بالتراب والدم. اتسعتا، وامتلأتا بنظرة ساخرة.. بنظرة ضاحكة. فجأة قهقهت العينان. وكان الرجال الثلاثة يجرون تاركين سجائرهم وراءهم، وكذلك مطارقهم.

* * *

نظرت عين إلى عين. تبادلتا كلمة حنونة وغامضة. ترامقتا بعمق، ثم انخرطتا في البكاء.

- لماذا تبكين؟

هكذا سألت عين، فأجابتها العين الأخرى:

- وكيف يمكن ألا نبكيْ!

الأجداد

بيتنا قديم، ورغم أنه ليس في ضخامة قصر، لكنه يوحي بالاتساع والعراقة. الجدران عالية، تنبثق من شقوقها عقود من الأعشاب الطحلبية الناعمة. والغرفات واسعة يتقلص الأثاث فيها بارداً كئيباً. والدار فسيحة يتوسطها بئر، تطوق فوهته دائرة من الخضرة الغامقة.. إن رعشة مثلوجة تسري في الظهر، حين يتملّى المرء من جديد هذا الاتساع الفارغ والمعتم، الذي لا تسمح النوافذ الضيقة بنفاذ كمية وافرة من الضوء إليه. حزم نحيلة تتسرب خلال النهار، دون أن تبدد جزءاً ضئيلاً من الرطوبة، التي تبثها، كل أرجاء المكان. وهذا فيما أحسب، ما يلوّن وجوهنا بتلك الصفرة الرمادية، التي تحاكي بشكل مدهش صباغ الجدران، الذي يبهت يوماً بعد يوم مضيعاً لونه الأصلي. تماماً كما ضيعت الصور الكثيرة المعلقة على تلك الجدران تفاصيلها ووجوه شخصياتها. وباستثناء البريق الشاحب، الذي ما تزال تختزنه عينا الإمام علي بن أبي طالب، وهو يشطر بسيفه ذي الفقار، عدوّه «مرحاب» إلى شطرين، فإن روث الذباب والغبار أخفيا معالم كل الصور وراء ستار داكن بني.

وبيتنا رغم اتساعه، يكتظ بقاطنيه. فبالإضافة إلى عائلتنا الصغيرة، المكونة من أبي ذي الشارب الكث، والعينين الحمراوين، وأمي الرقيقة الشفتين والمزاج، وأختيّ المتشابهتي الملامح والمتنافرتين في تكوينهما النفسي.. هنالك أيضاً إلى جوارنا وبيننا تسعة أجداد وسبع عشرة جدة ـ بعض أجدادي لم يكتفِ بزوجة واحدة، واثنان لم يكتفيا إلا بثلاث ـ كلهم يحتشدون في الغرفات الواسعة الباردة، وأحياناً عندما يكون الطقس مشمساً، يتبعثرون في الدار الفسيحة. كل منهم يحمل سبحته، ويمدد عصاه إلى جواره ناشراً للشمس وجهه

الممحي، وعظامه البارزة تحت الجلد المغضن. وما يميزهم جميعاً هو فيض القسوة والاشمئزاز في عيونهم، وعادة البصاق المستمر. مرة حاولت أن أعدَّ كم يبصق جدي الثامن منذ استيقاظه حتى مغيب الشمس، لكنني في الضحى تهت، وسئمت أيضاً، وبعد ذلك لم أعد الكرة ثانية.. وعبر الصمت الرطب، ظلت أفواههم الهتماء ترشق اللعاب يميناً وشمالاً دون تواضع، ودون أي إحساس بالخجل. وكانت حياتنا ممتزجة بهذه العادة امتزاجاً كاملاً، حتى أن الذاكرة لا تستطيع أن تقيم أي حاجز بينهما.

في البداية، عندما شرعت عيناي تسألان الأشياء، وما يحيطهما، لم يبدُ الوضع مزعجاً جداً، كما أنه لم يكن مفهوماً. علمني أبي أسماء كل أجدادي وجداتي، وأمرني بحبهم واحترامهم. ولأن يده موجعة حين تضرب، لم أتردد في طاعته. كنت أبذل لهم ما أستطيع من مظاهر الاحترام اللازم. ولم يكن هذا البذل يخلو في الواقع من نفاق، ذلك أنني في أعماقي، لم أكن أحب من بينهم إلا جدتي الثانية، وهي امرأة قصيرة القامة، ذات وجه مستدير، وعينين طافحتين بالبساطة والجاذبية. وقد كانت تروي لي بصوت دافئ كثيراً من الحكايات المسلية، التي ما زلت أذكر معظمها حتى الآن. أما الآخرون فقد كانوا في الحقيقة يخيفونني، ويثيرون في داخلي شعوراً غامضاً بعدم الاستقرار أو التوازن. كانوا جميعاً صامتين يربكون البيت بنظرات قاسية، تسيل برودتها حتى أجواف العظام. نظرات كانت تجعلني أحس أن الشمس قد مرضت، وأن العالم ليس فيه ما يكفي من الضوء. وكم تفصد العرق من جبيني، وكم اضطربت أحشائي، وأنا أعاني وطأة تلك العيون، التي لا ترف أجفانها، ولا يصفو لونها المعتكر أبداً!

وفيما بعد، توضح هذا الاضطراب إدراكاً ثقيلاً بأني في غضون محاكمة وحشية متواصلة. أبسط إيماءاتي وحركاتي مرصودة فيها. ولقد كان يتنامى هذا الإدراك وبعنف أثناء وجبات الطعام. إذ أن والدي كان مصراً على أن يظل لهذه الوجبات طابع رسمي وخاص. فتزدحم العائلة كلها حول الطاولة

الكبيرة القديمة، التي أصبحت تضيق بعددنا. (لم يكن مسموحاً للنساء بالجلوس إلى طاولة الرجال، ومن تقاليد عائلتنا الصلبة احتقار الانثى) ثم يبدأ الطعام بهدوء، ووفق أسلوب صارم. نستهل وجبتنا بالبسملة، ونختمها بالحمد، والويل لي إن نسيت. وكان لكل فرد ملعقته الخشبية، التي لا ينبغي أن يخطىء في التعرف عليها. وحرام تفتيت الخبز، أو نثره على الأرض، أو سكب قطرات من المرق على الطاولة أو الثياب. ورغم أن أبي نفسه، لم يكن يشعر بالارتياح أمام والده، فإنه لم يفكر يوماً في إلغاء هذا التقليد المنهك. كنت أحس طوال الوجبة، أن الجميع يراقبونني متذمرين. وعندما كانت تصادف عيناي عيني أيٍّ منهم، كنت أغصُّ بلقمتي، وأشعر باختناق حقيقي. لو أسرعت في تناول الطعام كانوا ينظرون إلي. لو أبطأت كانوا ينظرون إلي. وغالباً ما كان والدي يتخفف من ضيقه الشخصي بتأنيبي، أو تهديدي بالضرب. وطبعاً لم أكن أشبع، تماماً مثل أمي التي كانت هي الأخرى ضحية جداتي، اللواتي كن يُغرقنها خلال وجبات النساء بالنظرات والملاحظات. مراراً رأيتها تبكي لكنها بنبل خاص، كانت تمسح دموعها حين تراني أمامها قائلة.. «لا.. لست أبكي».

على أن الصمت الذي يرين أثناء النهار، كان يتشقق أحياناً، ويتقطع. ففي ليال كثيرة، بعد أن أكون قد آويت وأختيّ إلى الفراش، كانت تتنامى إلى مسامعي من وراء الجدران، وعبر العتمة الكثيفة، أصوات خافتة تتشاجر وتتشابك. كانت ضجيجاً حلزونياً يحتشد بالأصداء المائجة، ويتواكب كعشائر الجن، التي كانت تروي لي عنها جدتي الثانية، أو كعرائس البحر حين تخرج وسط الليل إلى الشاطئ، لتدق الطبول المبللة بالماء، وتندب تعاستها وأحزانها الطويلة. وكنت أرتعد تحت لحافي، وأفتح عيني، متصوراً أني في مقبرة، خرجت هياكل موتاها من الحفر المسدودة. ولم يكن الصباح يحمل أي تفسير لطنين أشباح الليل. مرة أخبرت والدي عن أصوات الليل، والخوف الذي تبثه في نفسي، فنهرني، وحذرني من الحديث مرة أخرى عن

أوهامي الكاذبة. ثم أسدل ستار الصمت، مغيباً كل شيء. كل الأسئلة، وكل المخاوف وراء جهمته الكئيبة.

وهكذا كانت تجري الحياة في بيتنا مثقلة بالصمت البارد، مزدحمة بالعيون الطينية، وبغمغمات العتمة المرعدة.. وكنت شيئاً فشيئاً أنضب في الداخل، وأحس تلاشي قدرتي على الاحتمال. وفي يفاعتي بدأت كوابيس غامضة تمزق سكينتي. مرة رأيت أجدادي يتذابحون، ومرة أبصرت واحداً منهم ينتزع أذنيه، وينظفهما بفرشاة صغيرة كالممحاة. وفي يوم آخر، رأيت أنهم وضعوني حياً في صندوق قديم، ثم سمّروا غطاءه. فقلت في نفسي آنذاك.. «بعد قليل سيجف لساني، ويسقط في جوفي». وبالفعل بدأ لساني ينسلخ من حلقي. حينئذ دوّت في البيت صرخة رددتها الجدران. وعندما فتحت عيني، كانت كل العائلة (فيما عدا أمي وأختي وجدتي الثانية) تنظر إلي دون عزاء، ودون شفقة. وكم شعرت ساعتها بالخجل وباستحالة البقاء! ومع أن أختيّ كانتا تعيشان الظروف القاسية نفسها، فإن نوعاً من اللامبالاة كان يطبع حياتيهما. ألا يقال إن كل فتاة في بيت أبيها زائرة! وبالفعل كانت كل منهما تنتظر حظها.

وفجأة قررت الرحيل.. أرعبتني الفكرة في البداية. وتصورت نفسي أجري في دروب مهجورة، تطاردني ثلة من الهياكل العظمية والعيون الغاضبة. لكن نداء الهرب كان أقوى مني. وذات يوم.. خرجت مع انبلاج الفجر، لا أحمل شيئاً سوى ذكريات مزعجة وآمال غامضة. وظللت أياماً أسير. لا.. لن أنبش الآن التفاصيل التافهة، التي تغصّ بها كل الأسفار. لم أعش في رحلتي الخوارق التي تحكي عنها القصص، رغم أني كنت أحلم بها. أقمت في أول مدينة صادفتها. تزوجت، وأنجبت من زوجتي ولدين. وبعد فترة قصيرة، ما لبثت صور البيت القديم تتراءى في ذهني، وهياكل الأجداد العجفاء تتلامح في عيني، مثيرة في داخلي أشد المشاعر إرهاقاً وغموضاً. كنت أرتعش، وكنت أحسني لم أهرب بعد، وإنما مشيت مسافة يسمح بها القيد الطويل،

الذي يغلني. ولم تفهم زوجتي هذه الحالة، كما أنها لم تثر ضدها. ولذلك لم تحاول أن تستوقفني، حين ظننتُ أن علي الابتعاد أكثر، كي أهرب فعلاً من رطوبة بيتنا وعتمته.

ورحلت.. هذه المرة لم أستقر في مكان. من قرية إلى قرية.. ومن مدينة إلى مدينة.. ويوماً بعد يوم، كانت الصور العتيقة تزداد كثافة، وتغلغلاً في ذاكرتي. ومرة بكيت، وتمتمت عبر دموعي «لو أنني أقطع الجذور».. وطبعاً لم تنقطع الجذور، بل تحولت إلى نداء ملحاح، بقدر ما هو موحش وكئيب. ولا أعرف أي سر في ذلك كله! لكنني، وكان شعري قد ابيضّ، عدت.. ضممت زوجتي وولديّ، وعدت.

تقريباً لم يتغير أي شيء في البيت القديم. كان الجميع هناك باستثناء أختيّ. انضممت إليهم، وتعلمت أن أجلس في الشمس مثلهم، وأن أبصق بين الفينة والفينة.

نصوص جديدة

* ★ بلاد أضيق من الحب
* ★ ذاكرة النبوءات
* ★ رحلة في مجاهل موت عابر

بلاد أضيق من الحب

-١-

(على الرصيف ، وتحت شجرة نارنج ضخمة يقف نبيل وإيفا، التي تتأبط مصنفاً كبيراً مما يستخدمه الرسامون عادة. ثمة شارع بين الرصيف وسور حديقة عامة.)

إيفا : انظر.. إنها شجرة نارنج. أين نحن؟

نبيل : تلك هي حديقة المنشية.

إيفا : **(تقطف بعض أوراق الشجرة)** خذ.. افرك الورقة بين أصابعك، ثم شمّها.

نبيل : **(يفرك الورقة، ويشمّ)** ما أبدع هذه الرائحة الليمونية!

إيفا : ألم تكن تعلم أن أوراق النارنج تختزن رائحة بديعة كهذه؟

نبيل : لا.. ولكن غالباً ما تهفُّ منك رائحة كهذه. تماماً.. رائحة شهية وليمونية كهذه.

إيفا : إنني أتحسس من العطور، ولا أستعملها.

نبيل : إذن هي رائحة جسدك الطبيعية. **(يقترب منها، ويتشممها)** يا الله.. هذا صحيح! إن لجسدك رائحة أوراق النارنج.

إيفا : (هامسة) هس.. أسمع صوت أقدام تقترب. ما الذي قادنا إلى هذا المكان؟

نبيل : ألا تذكرين! كنا نسير قرب مدرسة «الترقي»، وكنت تريدين أن نتوقف قليلاً، لولا أن الحارس بدأ يتفرس فينا.

إيفا : كنت أريد أن أدلكَ على الصف الذي أمضيت فيه سنتين.

نبيل : هل درست في «الترقي»؟

إيفا : نعم.. في تلك الأيام كان التعليم مختلطاً، وكان لي الكثير من الأصدقاء.

نبيل : ولماذا تركت المدرسة؟

إيفا : لأن أمي أصرّت على أن تضعني في مدرسة داخلية. آه.. كم كرهت تلك المدرسة، وكم أحببتها بعدئذٍ!

نبيل : ولماذا أصرت أمك على المدرسة الداخلية؟

إيفا : حرصاً عليّ. في المدرسة الداخلية يربون ويعلمون في وقت واحد. ومرة قالت.. إنها أبعدتني إلى مدرسة داخلية، لكي لا يفسدني أبي بالدلال.

نبيل : هذه أم قاسية ومتسلطة. أتعلمين.. رغم حواراتنا المتشعبة والطويلة، نادراً ما تحدثت عن نفسك.

إيفا : (هامسة) إني أسمع صوت الأقدام.

نبيل : أقترح أن نتسلق السور، وندخل الحديقة.

إيفا : ولماذا نتسلق السور! انظر.. إن الباب مفتوح.

نبيل : حقاً إنه مفتوح. هذا إجراء جديد. كانوا يغلقون الحدائق بعد هبوط الليل بقليل.

إيفا : إن الأقدام تقترب.

نبيل : هيا بنا.

- ٢ -

(إنهما في الحديقة. يتهاويان على مقعد خشبي في زاوية ظليلة ومنزوية.)

إيفا : ما كان يجب أن أنبش تلك الذكريات.

نبيل : بل ينبغي أن ننبش كل شيء. أحياناً أتمنى لو أفصِّصك خلية خلية، وواقعة واقعة، وفكرة فكرة، حتى أستوعبك، وأقرأ أخفى جزئياتك وتفاصيلك.

إيفا : ماذا أقول؟ لولا أبي لاستحال أن أتعلم الرسم، وأغدو رسامة. عارضت أمي بشدة، وكذلك أخي الصغيرالذي جعلته أمي، رغم فشله بالدراسة، سيد البيت والآمر فيه. يومها تفجر أبي عنفاً وحزماً. خلال لحظات تحوَّل عملاقاً، لا يجرؤ أحد على مواجهة نظراته الغاضبة. رضخت أمي، وتعلمت الرسم. وكنت أشحذ طاقاتي، كي أرسم اللوحة التي تليق بأبي. وحين أسعفتني ملكاتي بإنجاز تلك اللوحة، كان قد فقد بصره.

نبيل : كيف فقد بصره؟

إيفا : لا أدري.. **(تميل على نبيل، ويتحول صوتها همساً شبيهاً بالنواح)** أخبرني أن أمي هي التي سحبت الضوء من عينيه. قال لي.. كنت بين النوم واليقظة حين مالت برأسها فوقي، ووضعت يدها على عينيّ، وكنت كالمشلول. جربت أن أبتعد، فلم أستطع. جربت أن أصرخ، فلم أجد صوتي. كانت أصابعها كالملاقط، تستل الضوء من عينيّ. وعمَّت ظلمة كثيفة، وتمتمت في سري وأنا أستسلم.. بعد هذه الليلة لن أرى إيفا إلا بأصابعي. وحين استيقظت كان

الصباح ليلاً، وكان الظلام كثيفاً ومفزعاً.

نبيل : أتعتقدين أنها استلت بصره؟

إيفا : لست أدري.. في بيتنا رائحة كريهة، لا أجرؤ على الإشارة إليها، أو البحث عن مصدرها.

نبيل : هل تكرهين أمك؟

إيفا : لا.. لا أكرهها. إني أخشاها فقط. منذ طفولتي وهي تحاول السيطرة على حياتي. اليوم تضغط عليّ كي أقبل صفقة زواج، يمكن أن تؤمن مستقبل أخي الفاشل.

نبيل : ألهذا تحمستِ حين استعجلتُ فرارنا؟

إيفا : هو واحد من الأسباب.. ماكان يجب أن أروي لك هذه القصص السخيفة. ألا تشعر بالخيبة؟

نبيل : أشعر بالخيبة، وأنا أتعرف على معاناتك! ألم أخبرك كل شيء عني. لو تعرفين كم تخيلت هذا الفرار وحلمت به! لا.. ما كان يمكن أن أواصل تلك الحياة المثقلة بالأكاذيب! انظري.. إني أتنفس بخفة ويسر. لم أتخذ في حياتي قراراً أكثر صواباً من هذا القرار.

(تحط على الشجرة التي تظلّهما، بومة كبيرة الحجم، وصوتها يميزه رنين خاص. تنعق عدة مرات نعيقاً خفيضاً ومتقطعاً، كأنها تجرب حنجرتها.)

إيفا : **(بفرح)** معقول.! كيف جاءت.! إنها البومة.. صديقتي القديمة.. هل تتشاءم من البوم؟

نبيل : لا أتشاءم من البوم، ولكن لم أكن أعلم أنك تصادقين بومة.

إيفا : إن عزلتي في المدرسة الداخلية علمتني كيف أصادق البوم، وأتفاهم معه. **(يتحول نعيق البومة منتظماً ملحاحاً، وتختلج فيه رنّة خفية ومؤثرة.)** آه.. كم أحب هذه الصيحات، التي يرنُّ فيها أسىً جليل!

نبيل : وأنتِ.. هل تشعرين بالأسى؟ أخشى أن تكوني نادمة.

إيفا : نادمة! إن غبطتي بحر من الصفاء. لو..

(يرين صمت قصير)

نبيل : أكملي.

إيفا : **(مترددة)** لولا شعور خفي بالذنب، يلازمني دائماً مثل ظلي. ولكن.. لا.. اليوم لا أكاد أحس وخزة هذا الشعور.

نبيل : ولماذا يرافقك دائماً هذا الشعور بالذنب؟

(يتسارع نعيق البومة، وتعلو طبقته بتدرج ملحوظ.)

إيفا : **(تلتصق بنبيل قلقة)** من يعرف كيف تولد هذه المشاعر، وتتشعب في النفس كالنباتات السامة! وعلى كلّ، أعتقد أننا جميعاً مذنبون بشكل أو بآخر.

نبيل : ماذا تقصدين؟

إيفا : لو لم نكن مذنبين، لشعرنا أننا أخف، ولكان كل منا كالأنبياء قادراً على صنع المعجزات.

نبيل : لم أكن أعلم أنك متدينة إلى هذا الحد.

إيفا : وأنت .. أتظن أنكَ ملحد؟

نبيل : أتعتقدين أني أتظاهر! منذ الرابعة عشرة من عمري نفضت يدي من هذه المسألة.

إيفا : لا ينفض المرء يده من مسألة الإيمان إلا بالموت. هل تحبني؟

نبيل : هل أحبكِ! كنت أتفسخ قبل أن ألتقي بكِ. لم يكن في داخلي إلا المرارة ونداءات الموت. وكان كل ما حولي بشعا ومبتذلاً. ولكن.. ما إن التقيت بك، حتى استعدت حماستي وإيماني بأن الحياة بهية. هذه النجوم المرشوشة في السماء تبكيني. اقتربي.. اندسي في صدري.. حين أتأمل النجوم، وهذه السماء الحليبية، وهذه الخضرة المتموجة، أشعر أني مترع بالحب.

إيفا : **(وهي تعانقه)** ليس الإيمان شيئاً آخر.

نبيل : إذا كان الإيمان هو الحب، فإني يقيناً أساويك في الإيمان.

إيفا : آه.. الحب.. الحب. أكان ينبغي أن نلتقي!

نبيل : تصوري فقر العمر لو لم نلتقِ!

(يزداد نعيق البومة إلحاحاً، ويصل ارتفاعه طبقة مزعجة.)

إيفا : ولكن الوقت متأخر.

نبيل : ليس للأشياء الجميلة أوان. وكل الأوقات مناسبة للحب. لكن صديقتك البومة تغدو مزعجة كالعزّال.

إيفا : **(وهي تتشبث به)** أتدري ماذا تخبرني؟

نبيل : وماذا تخبرك البومة؟

إيفا : أبي يبكي، وأمي تبلّغ الشرطة، وأخي الفاسق يجوب شوارع المدينة.

نبيل : هل أخبرتك البومة كل هذا؟ أتريدين أن تتراجعي؟

إيفا : لا تسأل أسئلة سخيفة. إنها تخبرنا أن نمضي إلى مكان آخر، لأن الخطر يحدق بنا.

(ترفرف البومة بجناحيها القويين. تنهض إيفا محاولة أن تجرَّ نبيل معها.)

نبيل : لن نجد مكاناً أفضل من هذه الحديقة.

إيفا : إن البومة لا تكذب. أرجوك.. إني خائفة.

(فجأة تطير البومة مبتعدة، في اللحظة التي يتناهى فيها صوت صفارة. ينهض نبيل مستنداً على إيفا. يعلو صوت الصفارة بسرعة، ثم يزداد عدد الصفارات بشكل متلاحق ومتسارع. يعمُّ الصفير، ويأتي الآن من كل الجهات. يتلفتان حولهما مذعورين. ثم يعدوان بأقصى سرعة، وكلاهما يمسك بيد الآخر.)

- ٣ -

(يجلسان على إحدى الدرجات في مدخل بناية. تسقط عليهما أضواء نحيلة من باب البناية، لا تكاد تكشفهما إلا بصعوبة. إنهما يلهثان.)

إيفا : لم أعد أسمع الصفارات!

نبيل : لعلهم ضيعوا أثرنا.

إيفا : لا نستطيع البقاء هنا. سيرتاب بنا الداخل والخارج.

نبيل : دعينا نلتقط أنفاسنا.

إيفا : هل أنت متعب؟

نبيل : ربما..

إيفا : قبلني.. **(يقترب بفمه، ويمس شفتيها مساً لطيفاً)** قبلني.. **(يضغط أكثر على شفتيها، فتزداد إلحاحاً، ويعلو همسها)** قبلني.. لا تحبس أنفاسك. الهث في وجهي، وقبلني.

(يغيبان في قبلة نهمة ولاهثة)

إيفا : قالت لي عيناكَ.. لماذا تأخرتِ!

نبيل : قالت لي عيناكِ.. لماذا سجنتَ نفسكَ، وتباطأت في البحث عني؟

إيفا : آيقظتني من بلادتي اليومية.

نبيل : ونحيتِ موتي بعيداً.

إيفا : ولا يعرف أي منا متى بدأ ذلك.

نبيل : ليس للحب الحقيقي ساعة ميلاد.

إيفا : هل بدأ كل شيء حين ولدت؟

نبيل : في سنواتي الأولى، انتظرت ميلادك. وفي سنوات لاحقة، انتظرت أن تعبري المخاضات المنظمة والكئيبة.

إيفا : قرأت ديوانك الأخير، فلاحقتني كالوسواس خطوط وجه وألوان.

نبيل : وفي ضحى يوم شتائي، دخلتْ عليّ وأنا ممدد على الديوان، فتاة ساحرة، ملابسها مهملة، تتأبط مصنفاً كبيراً، وتحمل علبة أقلام وألوان.

إيفا : فور دخولي رشقني بقبضة من الأسئلة المريرة والساخرة. شعرت بالارتباك، ولم أعد أعرف، هل أنسحب أم أبقى. ولكن حين لاحظ ارتباكي، غير لهجته، وأبدى سماحة مدهشة.

نبيل : أخرجتْ أوراقها، وبدأت تتفحص وجهي من زوايا مختلفة. لم يكن رسم وجهي ما يثير اهتمامي. كنت آمل أن أشرع حواراً ممتعاً مع فنانة متميزة في فنها.

إيفا : وامتد بيننا الحوار. وكلما تكلم كنت أحس أني أرتاد مكاناً مفعماً بالضوء والجدة والمتعة.

نبيل : وكلما امتد الحوار، كنت أمتد في عوالم طازجة، تمتاز بالغنى والعفوية.

إيفا : كنا نترابط ونتواصل.

نبيل : لم نشعر يوماً أن الحوار ينفد، أو أننا استنفدنا الكلام. وحتى حين كانت تشتد عليّ آلامي، كنت أتلعثم في البداية، ولكن مع تدفق الحوار وحرارته، كنت أنسى آلامي.

إيفا : وكانت ملامحه جرياناً مستمراً، لا أعرف كيف أقبض عليه. كان قد تحول جرياناً مستمراً في داخلي، ولم أعد أعرف كيف أجد المسافة الضرورية كي أرسم الصورة.

نبيل : كان الوقت الذي نلتقي فيه يشبه نزهة خارج المرض والبيت، الذي يتعفن بالرطوبة، وزفر المشاجرات السامة.

إيفا : كان الوقت الذي نلتقي فيه هو زمن نشوان، لا ينغصه عمى

الآباء، وقسوة الأمهات، وسفاهة الأخوة. أحياناً أحس أن العيش في ذلك البيت يشبه عبور المطهر.

نبيل : ما كنا لنعرف الحب الحقيقي لو لم نعبر تلك المضائق الوعرة الشبيهة بالمطهر.

إيفا : ولكن أين الفردوس الذي ينتظرنا!

نبيل : **(وهو يحضنها)** هذا هو الفردوس.

(باب يفتح في أحد الطوابق العلوية، وصوت خطوات تهبط الدرج. ينهض نبيل وإيفا مذعورين، ويخرجان من البناية. يسيران على الرصيف ويداهما متشابكتان.)

- ٤ -

(يسير نبيل وإيفا على الرصيف، ويداهما متشابكتان)

إيفا : أيعقل أن يكون الحب جريمة! وأن يطاردوننا كاللصوص؟

نبيل : إن الحب فوضى تخيفهم.

إيفا : كيف يخافون من الحب، وهو أجمل شيء في هذه الحياة!

نبيل : الأرواح الفقيرة لا تبحث عن الجمال، بل عن النظام. لا تستطيع العيش إلا إذا رتبت عالمها في شبكة من المؤسسات والروابط والنظم. الأسرة والمضاجعة والتناسل وصلات القرابة والنسب، كلها منظمة ومرتبة بقوانين وسجلات. إن الأرواح الفقيرة تخاف الفوضى مهما كانت جميلة، وتفضل النظام مهما كان صارماً وبشعاً.

إيفا : هل يعتبروننا مجرمين؟

نبيل : إننا خارجان عن النظام.

إيفا : وما هي العقوبة في هذه الحالة؟

نبيل : أن نعيش منبوذين، ومجللين بالفضيحة.

إيفا : هل تحتمل هذه العقوبة؟

نبيل : سأحتمل الجحيم ذاته، إذا بقيت معي.

إيفا : سأبقى معك.

(تحاذيهما سيارة أنيقة فيها شابان.)

السائق : **(وهو يخرج رأسه من النافذة)** تفضلا..

(نبيل وإيفا يرتبكان، ويسرعان الخطى.)

السائق : لماذا تسرعان! إني أضع سيارتي الجديدة في الخدمة. **(تلتصق إيفا بنبيل، وتجره كي يضاعف سرعته)** لماذا تركضان! لا نريد إلا راحتكما. اصعدا.. ولن تندما. انظري أيتها الحلوة.. نحن أيضاً لا ينقصنا شيء. سنتعارف ونتبادل المودة. هذا العرض لا أقدمه لأي كان. حلفت ألا تركب هذه السيارة إلا النساء الجميلات. ولو لم تكوني جميلة، لما عرضت عليك الركوب.

الشاب الثاني : أيستطيع هذا العجوز أن يشبعك؟ انظري إلينا.. إننا معجونان بدمنا. والشباب يفيض منا.

السائق : لدينا شقة جميلة، كل ما فيها يحرّض الشهوة، ويضاعفها. **(ما زالت إيفا تجر «نبيل»، ومشيتهما غدت هرولة)** اسمعي يا حلوة. هذه الحركات لا تمشي عليّ. حددي سعرك، وسندفع لك العربون سلفاً.

الشاب الثاني : لا تحاولي الغش. فأنا أعرف مرتبتك، والفندق الذي تصطادين منه زبائنك.

(تتوقف إيفا فجأة. تنحني على الرصيف، وتبدأ بالتقيؤ)

نبيل : **(يتجه نحو السيارة. يتدافع كلامه كالمتفجرات، وهو يدق بقبضته على سطح السيارة)** هذا عار.. هذه سفاهة.. أيها الذئاب! أيها القتلة! **(يصاب الشابان بالذعر، فتقلع السيارة**

وتمضي) ملعونة البطون التي تنجب هذه الذئاب.. وملعونة البيوت التي تربيها.. وملعونة المدن التي تخضع لها. **(يعود إلى إيفا التي تمسح فمها بمنديل ورقي.)** هل ارتحتِ قليلا؟

إيفا : لا أستطيع.. لا أستطيع. إني خائفة.

نبيل : ماذا تقترحين؟

إيفا : ألا يحتمل أن يكون صديقك قد عاد إلى البيت؟

نبيل : أتصدقين! غاب عن ذهني تماماً.

إيفا : هل وعدكَ فعلاً، أن يعطيك بيته فترة من الزمن؟

نبيل : طبعاً وعدني.. ويومها عرض عليّ، أن يعطيني نسخة أخرى من المفتاح.

إيفا : إذن.. دعنا نحاول!

نبيل : نعم.. لا بد أنه عاد إلى البيت.

- ٥ -

(إنهما الآن أمام باب غرفة هي ملحق على سطح بناية. نبيل يلهث متعباً، وهو يضغط على الجرس. رنين أجش ومديد. يُفتح الباب، ويطل منه رجل في العقد السادس من عمره رثّ الهيئة والملابس. رأسه كبيرة، ولم يبقَ من شعره إلا خصلات متناثرة، يمطها إلى اليمين وإلى الشمال مستخدماً الزيوت اللاصقة، كي يخفي قليلاً عري جمجمته. لا يلوح على وجهه أي تعبير.)

الصديق : تفضلا.

(يدخل نبيل وإيفا بحماسة حذرة. الغرفة مكتظة كمخزن للنفايات. ثمة مكتبة على عرض أحد الجدران. وهناك أكداس

من الكتب والصحف في كل مكان تقريباً. في الغرفة طاولة خشبية حولها كرسيان من القش، وثالث من الفورميكا. هناك أيضاً سرير تتناثر عليه الكتب والأوراق. وفي الفراغ الصغير بين الطاولة والحائط الداخلي يتمدد صندوقان خشبيان شبيهان بتابوتين، وهما مملوءان بأكداس من القصاصات والأوراق المنسوخة. على الحائط نفسه علقت لوحة رسم عليها خفاش بكثير من الصنعة والدقة.)

نبيل : جئنا قبل الآن، ولم تكن في البيت.

الصديق : أأنت من كان يقرع الجرس بإلحاح؟

نبيل : كنت أعتقد أنك نادراً ما تخرج في مثل تلك الساعة.

الصديق : لا تؤاخذني.. لعنت الزائر والجرس وذلك الإلحاح. لماذا لا تجلسان! **(يضع يده على كتف إيفا)** تفضلي.. تفضلي..

نبيل : **(وهو يجلس قرب إيفا)** سامحك الله.. لو فتحت لنا الباب، لوفرت علينا الكثير من العذاب.

الصديق : كنت منهمكاً في عملي، وكنت في ذروة تألقي ونشاطي.

نبيل : ماذا كنت تفعل؟

الصديق : كنت غارقاً في المنفلوطي، أنظم فهارس عبراته ونظراته. وكما تعلم فأنا لا أكتفي بالفهارس المدرجة في آخر الكتب، بل أزاوجها مع الفهارس، التي أستخرجها من الصحف والمجلات عندما نشرت لأول مرة. إن فهرسة المنفلوطي مرهقة لكنها تنعش الذهن، وتحرض قابلياته الإبداعية بصورة عجيبة. ماذا تفضلان القهوة أم الشاي؟ **(يلاحظ أن إيفا مستغرقة في تأمل لوحة الخفاش المعلقة على الحائط.)** هل تدهشك اللوحة؟

إيفا : **(وكأنها بوغتت)** لا.. لست أدري. إنه غريب ومخيف قليلاً.

الصديق : أما أنا فأحب الخفاش. أتدرين لماذا!

إيفا : (بفتور) لماذا؟

الصديق : لأنه الحيوان الثديي الوحيد، الذي يستطيع الطيران. ولأنه كائن ليلي مثلي. ماذا قلتما.. أتفضلان القهوة أم الشاي؟

نبيل : لا فرق.. قهوة أو شاي. كلاهما واحد.

الصديق : طيب.. نبدأ الآن بالقهوة، ثم نشرب الشاي فيما بعد.. أتحبين القهوة مرّة مثلنا، أم تفضلينها حلوة؟

إيفا : لا تشغل نفسك. يمكن أن أضيف إليها قليلاً من السكر، إذا وجدتها مرّة.

(يخرج الصديق من باب داخلي يفضي إلى الحمام ومطبخ صغير مرتجل.)

نبيل : **(وهو يمسك يد إيفا)** لا يبدو عليك الارتياح. ماذا هناك؟

إيفا : أهذا هو الصديق الذي سيعطينا بيته!

نبيل : هل تعرفينه؟

إيفا : حين أقمت معرضي، لازمني كاللزقة. كان يأتي قبل الظهر، وكان يأتي بعد الظهر. ومرة..

نبيل : ومرة..

إيفا : سأحكي لك فيما بعد. هل أنت واثق أنه صديق يمكنك الاعتماد عليه؟

نبيل : أعتقد أنه يقدر صداقتنا تقديراً عالياً، ويسره أن يقدم لي خدمة إذا استطاع.

إيفا : أرجو أن يكون تقديرك صائباً.

نبيل : إنه صائب.. وسترين. **(يلف كتفيها بذراعه، ويلمس خدها مداعباً.)** إنك تتجمعين على نفسك، وكأنك مذعورة. نحن الآن في مكان آمن. انظري.. فوق هذا السرير، سنقضم تفاحتنا المحرمة، ونتكهرب بنعومة الحية ومكرها.

(تميل بوجهها نحوه. تنظر إليه بحنان، وتقبله.)

إيفا : ليتني أصدقك..

(يدخل الصديق حاملاً صينية متسخة، تتساقط منها قطرات من الماء. عليها ركوة كبيرة، وفناجين فخارية وسكرية وكأس ماء . يضع كل شيء فوق الطاولة.)

الصديق : وهذه هي القهوة. **(يصب من الركوة في الفناجين الفخارية.)** يمكنك أن تضيفي سكراً كما تشائين.

إيفا : **(وهي تخرج من حقيبتها علبة سجائر وقداحة.)** شكراً لك.

نبيل : أعطني سيجارة.

إيفا : ماذا؟ أتريد حقاً سيجارة!

نبيل : نعم.. أريد أن أمارس الصحة.

(تضع في فمها سيجارة، وتناوله أخرى. تشعل السيجارتين الواحدة بعد الأخرى.)

الصديق : ألم تكن حالتك سيئة منذ فترة!

نبيل : كنت تقريباً أحتضر.

إيفا : **(وهي تضربه على يده)** لا تقل ذلك.

نبيل : هذه هي الحقيقة ولولاها.. لا أعرف كيف أشرح لك. إذا صدقنا أن المسيح أحيى ألعازر فعلاً، فهل تتصور كم كان صوته محباً وعميقاً وسخياً، حين قال: قم يا ألعازر! وكما قام ألعازر، شعرت أن الحياة تدبُّ في أوصالي، حين نظرت إلي وقالت.. نحِّ الموت جانباً!

إيفا : إني أشعر بالخجل، حين تبالغ في وصف تأثيري.

نبيل : إني لا أبالغ. وأنا أقدر الناس على معرفة التغيرات التي طرأت علي.

الصديق : هل أعادك السرطان إلى الغيبيات!

نبيل : إني أتحدث عن الحب، لا عن الغيبيات. وعلى كل من الصعب أن أشرح لك، وأعتقد أن هذه الكتب بكل

أكداسها، لا تنطوي على عبارة واحدة، يمكن أن تضيء ما أشعر به.

الصديق : طبعاً.. ألا ينبغي أن تكون أتفه مشاعر البرجوازي الصغير، معجزة لا تستوعبها الكتب والتصنيفات.

نبيل : لعلي أخطأت بالحديث عن مشاعر ذاتية، يصعب أن تحددها الكلمات. ولكن أرجو أن تعلم أن تعاطفك مصيريٌّ بالنسبة لي.

الصديق : الآن.. حان وقت الشاي.

نبيل : لا تتعب نفسك.. لا أحد يريد شاياً.

الصديق : أتريدان أن نجدد القهوة؟

نبيل : لم نأتِ كي نتأكد من حسن ضيافتك.

الصديق : إذن.. لا تريدان شيئاً!

نبيل : نعم نريد.

الصديق : ماذا؟

نبيل : هل تذكر؟ منذ فترة وعدتني أن تعيرني غرفتك بضعة أيام..

الصديق : ألم تجد مكاناً تستكمل فيه فصول مهزلتك، إلا غرفتي!

نبيل : أية مهزلة؟

الصديق : أنت والآنسة الموقرة.

نبيل : ما هذه اللهجة! إنك تهينني.

الصديق : بل أنت الذي تهين نفسك. أيليق بكَ، بعمرك ومرضك، أن تسلك هذا المسلك الداعر! ما معنى أن تتخلى عن عائلتك، وتجري وراء نزواتك وشهواتك! أتعلم أن امرأتك تلفنت ثلاث مرات حتى الآن، وأن أولادك يقفزون من مخفر إلى مشفى، ومن مشفى إلى مخفر!

إيفا : **(وهي تنهض بغضب، وتدق الأرض بكعب حذائها)** أيها المنافق.. أيها الطرطوف اللعين.. أنت آخر من يحق له

الحديث عن المسالك الداعرة. هل نسيت أيام المعرض؟ لقد نغصت عليّ نجاحي قبل الظهر وبعد الظهر. تدبقّ علي بالغزل والمراودة، وأنا أصده بلطف كيلا أجرحه. ومرة حاول أن يعتدي علي، ولم ينقذني إلا دخول بعض الزوار. هذا هو الصديق الذي يصفنا بالدعارة، ويلقي علينا محاضرة عن الفضيلة.

نبيل : هل وصلت غاراتك المزرية إليها. كل نساء أصدقائك يتحدثن بتقزز وإشفاق عن غاراتك، التي لا تنم إلا عن فساد الروح والخلق. كيف خادعت نفسي، واعتقدت أن بوسعك، أن تعلو على حسدك وظلمة نفسك، **(يلف إيفا بذراعه)** وأن ترحب بهذا الشيء الجميل الذي يجمعنا!

الصديق : **(بصوت راجف)** اخرجا من هنا!

(في هذه اللحظة يخرج الخفاش من اللوحة حياً، ويبدأ بالطيران في أرجاء الغرفة. يبدو الفزع والبهوت على إيفا ونبيل.)

إيفا : **(وهي تمسك يد نبيل. بنبرة هستيرية)** دعنا نخرج من هذا المكان اللعين.

(لا يستجيب نبيل ليد إيفا التي تشده، فتتركه وتخرج من الغرفة متعثرة ومسرعة.)

نبيل : ما أتعسك أيها الرجل! لن يمنعني خفاشك التافه من قول ما لدي. لو تعلم كم داريناك! وكم حاولنا أن نجعلك أقل وحدة وخواء! ولكن ما الفائدة.. ما أنت إلا إنسان صغير وفقير الروح.

(يخرج نبيل بدوره من الغرفة، بينما يوالي الخفاش طيرانه الدائري في فضاء الغرفة الضيق.)

-٦-

(فترة ظلام. إنهما الآن يجلسان في المقعد الخلفي لسيارة تاكسي)

إيفا : **(وأسنانها تصطك)** بردانة وخائفة. ضمني إليك.

نبيل : **(وهو يضمها، ويمسح على شعرها)** كانت غلطة كبيرة، أن أصدق رجلاً حسوداً، وفاسد الطوية مثله.

السائق : **(وهو يلتفت إلى الخلف، ويزيح رأس نبيل بيده)** يا أخانا.. هذه تاكسي وليست كرخانة. اجلسا كناس يحترمون أنفسهم أو انزلا.

نبيل : **(وهو يزيح يده)** ألا ترى.. إنها مريضة.

إيفا : لا.. لا.. قف.. دعنا ننزل.

نبيل : قف.. **(يتوقف التاكسي، وتنزل إيفا بسرعة)** كم تريد؟

السائق : كامل الطلب.

نبيل : لم يتجاوز العداد الليرتين والنصف.

السائق : **(بغضب)** قلت كامل الطلب. وإلا أقسم بالله..

نبيل : طيب.. طيب.. في النهاية كم تريد أن أدفع؟

(يأتي قزم صغير. يقفز قرب السيارة، ويفتح الباب من جهة نبيل.)

القزم : ادفع له وانزل.. محسوبك وصل.

السائق : ثلاثين ليرة.

(يدفع له ثلاثين ليرة. وينزل من التاكسي الذي ينطلق مبتعداً. بينما يؤدي القزم حركات بهلوانية أمام نبيل. إنهم على رصيف أحد الشوارع.)

القزم : أنهكتني يا رجل!

إيفا : **(بذهول)** ومن هذا أيضاً؟

نبيل : لست أدري.. وجدته على باب التاكسي، وهو يتصرف وكأنه يعرفني!

القزم : طبعاً.. أعرفك وأعرفها أيضاً. منذ أول الليل، وأنا أقتفي أثركما.

إيفا : **(وهي تندس في خاصرة نبيل)** لماذا تقتفي أثرنا؟

القزم : لا تخافي.. لا تخافي.. أنا صديق لا عدو.

نبيل : ولكن من أنت؟

الصديق : **(ضجراً)** هي دائماً الأسئلة نفسها.! ليكن.. أنا الشخص الذي تجدان لديه بغيتكما.

نبيل : وما هي بغيتنا؟

القزم : أتمتحنني؟ ليكن.. أليست بغيتكما مكاناً آمناً تأويان إليه؟

(يتبادل نبيل وإيفا نظرات حائرة مندهشة.)

نبيل : من أخبرك عنا، وكيف عرفت أمرنا؟

(يمد نبيل يده ليمسك كتفه، لكن القزم يقفز مبتعداً ككرة مطاطية. يتبعه نبيل ويحاول الإمساك به. وكلما كاد أن يمسكه، يقفز الآخر قفزته المطاطية. تتخذ المطاردة شكلاً دائرياً. وفي النهاية يشعر نبيل بالتعب، وتتلاحق أنفاسه، فيجلس على الرصيف لاهثاً. تنضم إيفا إليه، وتجلس إلى جانبه.)

نبيل : اللعنة عليك.. من أنت؟

القزم : من أنا.؟ من أنا.؟ ومن يعرف من هو! هل تعرف من أنت؟

نبيل : إني أعرف على الأقل أهلي، واسمي، والمهنة التي كنت أمارسها، والغاية التي أجري الآن وراءها.

القزم : ليكن.. ليس لي أهل. والمرأة التي حملتني كارهة ومشمئزة، رمتني في زقاق مظلم، فلم أستطع رؤيتها، ولم أعرف شيئاً

عنها. حين كبرت، وهربت من دار الأيتام، أحببت فتاة لها أب وأم ومدرسة تتعلم فيها. وبادلتني الفتاة، التي لها أب وأم ومدرسة تتعلم فيها، الحب. شتموني، وضربوني، وإلى دار الأيتام أعادوني. صعقني الحزن، وأوقف نمّوي. وعندما خرجت من دار الأيتام، قررت أن يكون الحب اختصاصي، ومساعدة العشاق مهنتي. أما الاسم، فإن لدي من الأسماء ما لا يُعَدّ.. بعضها رفيع، وبعضها رقيع. ولم أرَ في حياتي مهنة، اختلف الناس في تقديرها مثل مهنتي. وعلى كل يمكنك أن تناديني بالاسم، الذي تراه مناسباً لي.

نبيل : إن حكايتك جميلة.. أليست جميلة يا إيفا؟

إيفا : نعم.. إنها جميلة.

القزم : وحكايتكما جميلة أيضاً. إن كل حكايات الحب جميلة. وسأروي لكما واحدة من أجمل،.

(يتناهى من شارع قريب إنشاد ديني تؤديه جماعة حاشدة.)

نبيل : ما هذا؟

القزم : إنهم شبيبة محمد يقومون بجولتهم الليلية.

نبيل : هل هم جماعة للتراتيل الدينية.

القزم : ماذا تحكي يا رجل! هؤلاء شباب ترعرعوا على الكراهية والعنف. وهم يسفكون الدماء على الشبهات.

نبيل : هل تغيّر النظام؟

القزم : وما أدراني! لعله يتغير.. **(وهو يدفعهما للابتعاد)** إن الموكب يقترب. سأشتت انتباههم ريثما تختفيان. بعد بضع خطوات ثمة شارع جانبي فيه مطعم صغير. ادخلا إليه، وانتظراني هناك.

(يقترب الإنشاد كثيراً، وتبدأ طلائع الموكب بالظهور. يمشي نبيل وإيفا بسرعة قاصدين الشارع الجانبي. ومع اختفائهما،

تظهر طلائع الموكب، يتقدمه أمير الجماعة، وخلفه أرتال من الشباب الذين أطلقوا لحاهم، وحلقوا شواربهم، وهم يرتدون جلابيب قصيرة. يسرع القزم لملاقاة الموكب بحركات بهلوانية، تثير الدهشة والضحك معاً.)

الموكب : **(وهو يتقدم منشداً)**

يا من أحاط بكل شيء علمه وعليه في كل الأمور توكلي

إني سألتك بالنبي محمد وبما تلاه من الكتاب المنزل

- ٧ -

(ينطفئ الضوء فوق الموكب. ثم تظهر أضواء نيون بيضاء وشرسة في صالة مطعم صغير. في إحدى الزوايا يجلس نبيل وإيفا على كنبة، أمامها طاولة عليها مزهرية صغيرة من نحاس رخيص، وفيها وردة اصطناعية باهتة الحمرة. إن المطعم باتساخ جدرانه البيضاء والعارية وطاولاته البنية وإضاءته الباهرة، يعطي إحساساً غريباً، بأن المرء يجلس في عراء موحش. هناك بضعة زبائن يتناثرون في المطعم، لكن نبيل وإيفا لا يعيرانهم في البداية أي اهتمام.)

إيفا : هل تظن أنه صادق؟

نبيل : لا أدري.. رغم غرابته شعرت بالارتياح نحوه.

إيفا : أخشى أن تكون هناك خدعة.

نبيل : يجب ألا نخشى شيئاً بعد الآن.

إيفا : هل تستطيع؟

نبيل : نعم سأواجههم جميعاً. وإذا اقتضى الأمر سأدور في الشوارع صائحاً.. إني أحبها.

إيفا : (وهي تمسح على رأسه بحنان) كم أود أن أريح رأسي على كتفك.

نبيل : (بارتباك) ليس هنا.. إن الجميع يراقبوننا. انظري.. أين نحن.؟ ومن هؤلاء.؟ ذلك الرجل.. ذلك الرجل..

(على طاولة غير بعيدة عنهما يجلس رجل في الأربعين من عمره. أنفه ضخم جداً يكاد يخفي فمه. إنه يحملق فيهما. وبين فينة وأخرى، يمد يده إلى عينه، فيخرجها من محجرها. ينظر إليهما بعينه الثانية، ثم يمسحها بمنديل ورقي، ويعيدها إلى محجرها. يكرر العملية ذاتها بالعين الثانية، وحين تستقر العينان، يعود فيحملق بهما من جديد.)

نبيل : وهناك.. انظري إلى الطاولة الثانية!

إيفا : هذا مرعب..!

(على الطاولة التي أشار إليها نبيل، يجلس رجلان أحدهما يرتفع كتفه، ويميل رأسه ميلاناً لولبياً بتشنجات عصبية لا إرادية ومنتظمة. إن من ينظر إليه يحسُّ، وكأنه يغمزه بحركة رأسه، أو يتحرش به. وهو يتكلم مع إيقاع تشنجاته، ونظراته مثبتة على نبيل وإيفا. أما الثاني فهو شاب تبدو البلاهة على وجهه، ويسيل اللعاب من زاوية فمه. بين الحين والآخر يطلق قهقهة جوفاء ومنفرة. يُخرج من جيبه فأرة مربوطة بخيط، يضعها على الأرض، ويتركها تجري بضعة أمتار، ثم يسحبها بالخيط. على طاولة ثالثة تجلس امرأة عجوز ومعها فتاة كالدمية، يتراكم الماكياج على وجهها كالقناع. وبين وقت وآخر، تبدل العجوز رموش عينيها، وتقرصها، فتنهض الفتاة بصورة آلية، وتمشي مشية متقصعة، تبرز حركة ردفيها، وعري نهديها تحت البلوزة الشفافة. تمضي حتى آخر الصالة، وتعود لتجلس بصورة آلية على كرسيها قرب العجوز.)

إيفا : يا الله! هذه الليلة لا أكاد أتعرف على المدينة.

نبيل : منذ فترة طويلة، لم أتجول في المدينة. وحين التقينا هذا المساء كان كل ما أراه يبدو أليفاً وباهراً. تصوري.. رأيت المدينة متوردة ومغسولة، كأنها خرجت لتوها من الحمام. حين التقينا هذا المساء.. ولمحت خضرة الفرح في عينيكِ. أدركت الشفافية التي كنت أبحث عنها طوال عمري. وأحسست أن موجة من العطر والنقاء كانت تهزهزني، وتحملني إلى بحرنا الموعود.

إيفا : والآن؟

نبيل : إن قواي تخور.

إيفا : هل تعبت؟

نبيل : وبدأ الألم يصحو.

إيفا : (بهلع) هل يئست؟

نبيل : آه يا فرحي.. إن اليأس ترف لم يعد متاحاً لي.

إيفا : أتعتقد أنه ما زال هناك أمل؟

نبيل : ينبغي أن يكون هناك أمل. لا نستطيع أن نتخلى عن الأمل.

(تنتبه الفتاة الشبيهة بالدمية إلى اقتراب الفأر منها، فتنهض فزعة، وهي تطلق صرخات هستيرية. يصاب الشاب صاحب الفأر بالرعب، فيطلق هو الآخر صرخات هستيرية يهتز لها المكان. من باب خلفي يؤدي إلى المطابخ يظهر النادل، وهو شاب حليق الرأس، متجهم الملامح، يرتدي بذلة حشيشية اللون. السترة بلا قبة، وأزرارها نحاسية. يحمل بيده عصاً مطاطية، ويقترب بخطىً حازمة من الشاب أولاً. ينهال عليه بضربات متلاحقة تجبره على الصمت والجلوس. كذلك تتوقف الفتاة عن الصراخ، وتجلس في مكانها، وهي تشير بإصبعها إلى الفأر. يقترب النادل، ويسحق الفأر بكعب حذائه، فيظهر على وجه الفتاة فرح شرير، بينما يطلق الأبله

أنّة مفجوعة تتحول إلى نحيب مكتوم. يذرع النادل المكان جيئة وذهاباً بمشية عسكرية، وهو يتفرس في الحاضرين. يتوقف أمام نبيل وإيفا، ودون أن يفوه بكلمة، يباعد بينهما بطرف عصاه. يخرج عائداً من الباب الخلفي.)

إيفا : من هذا؟.. وأين نحن؟..

نبيل : فعلاً.. كم تغيرت المدينة منذ المساء وحتى الآن!

إيفا : لقد سخر منا القزم، ودبر لنا هذا المقلب.

نبيل : إن قواي تخور، والألم يزداد قليلاً.

إيفا : كل شيء يغدو كابوساً. هذا المكان، والمدينة، والليلة التي انتظرناها دهراً.

نبيل : لا تقولي ذلك.

إيفا : عندما كنت صغيرة. كنت أحب الأراجيح.

نبيل : **(وهو يمسك المصنف)** دعيني أرَ رسومك.

إيفا : **(وهي تتشبث بالمصنف بقوة)** لا.. لا.. لم يحن الوقت بعد.

نبيل : ومتى يحين الوقت؟

إيفا : عندما نصل إلى بر الطمأنينة.

(يظهر النادل، وهو يحمل صينية كبيرة، عليها أطباق غريبة الشكل، وفيها معكرونة خضراء اللون ومعجّنة. يضع أمام كل زبون صحناً وشوكة بادئاً بنبيل وإيفا.)

نبيل : لم نطلب شيئاً بعد.

النادل : هنا لا أحد يطلب شيئاً. ونحن لا نعدُّ إلا صنفاً واحداً.

(ترتفع قهقهات متناثرة من الزبائن، الذين يصغون إلى الحوار. ولكن حين يلتفت النادل، يتوقف الضحك، ويعمُّ الصمت.)

إيفا : ألست جائعاً؟

نبيل : حتى لو كنت جائعاً، لا أستطيع أن أتناول هذا الطعام.

إيفا : لم أرَ من قبل معكرونة خضراء!

نبيل : أتظنين أنها معكرونة؟

إيفا : **(وهي تحرك بالشوكة محتويات الصحن)** هذا غريب.. كأنها ديدان..

نبيل : حقاً إنها كالديدان.

(ينحيان الصحنين، وهما يغالبان الرغبة في التقيؤ. الزبائن الآخرون يأكلون بنهم. يظهر القزم، ويدخل إلى المطعم ماشياً على يديه. يصفق الزبائن لدخوله، فيرد التحية بثني ساقيه ورفعهما. يتجه نحو الفتاة الدمية، وعندما يصل قربها، يقفز واقفاً على رجليه، وينحني أمام الفتاة بتبجيل مبالغ فيه. تضحك الفتاة، وهي تربت على رأسه، بينما يمدُّ القزم يده ويضغط على نهدها الضخم، فتنبعث نغمات موسيقية، تشبه النغمات التي يصدرها الأكورديون حين ينضغط. تقهقه الفتاة، وكذلك الزبائن الآخرون. يتركها القزم، وينضم إلى نبيل وإيفا.)

القزم : هل تأخرت؟

إيفا : كدنا نيأس من مجيئك.

القزم : ألم تثقا بي بعد!

نبيل : إني أثق بك. ولكن لا أخفيك.. بدأنا نتعب ونتوتر.

إيفا : وهذا المكان الغريب المفزع!

القزم : المحبون لا تخيفهم الأمكنة، مهما بلغت رهبتها أو غرابتها. في الأيام الغابرة.. الغابرة، قبل أن يولد سيدنا محمد، وينشر نور الهداية. كانت نائلة تعشق إساف، وكان إساف يعشق نائلة.

نبيل : نائلة وإساف.. تلك حكاية عشق كبير.

القزم : كنت متيقناً أن كاتباً مثلك، لا يمكن أن يجهل حكاية إساف ونائلة. ومع هذا من الجميل أن تُروى.

نبيل : هل تعرفني؟

القزم : يا عيب الشوم.
إيفا : وما حكاية هذين الشخصين؟ أنا لا أعرفها.
نبيل : نعم.. جميل أن تروى.
القزم : إذن.. ستساعدانني في روايتها. **(ينهض، ويتوسط المكان. يغدو شبيهاً براوٍ مسرحي)** في الأيام الغابرة.. الغابرة، قبل أن يولد سيدنا محمد، وينشر نور الهداية. كانت نائلة تعشق إساف، وكان إساف يعشق نائلة.
(يقترب من نبيل وإيفا، ويجرهما كي ينهضا)
نبيل : ماذا تريد؟
القزم : أن تساعدني في قص الحكاية.
نبيل : كيف؟
القزم : ستكونان إساف ونائلة.
نبيل : يا رجل..
القزم : لا تتردد.. سيكون ذلك جميلاً وممتعاً.
(يلتفت القزم، ويغمز الزبائن)
الزبائن : **(وهم يصفقون)** نعم.. نعم.. إساف ونائلة. نعم.. نعم.. إساف ونائلة.
(ينهض نبيل مغالباً حرجه، وهو يشد إيفا بيدها. يقفان قرب القزم)
القزم : **(تتخذ لهجته طابعاً مسرحياً)** إذن.. كانت نائلة تعشق إساف..
الزبائن : **(بصوت واحد)** وكان إساف يعشق نائلة.
القزم : وذات مساء تلاقيا. وكان كل منهما يلتهب شوقاً إلى الآخر. بحثا عن مكان يتسع للشوق واللهفة، فوجدا كل الأمكنة معادية أو ضيقة. وكانت اللهفة في أحشاء كل منهما تعلو، وتجيش كالنهر في موسم فيضانه. وقال إساف.. ماذا قال؟

نبيل : **(ملتفتاً إلى إيفا)** لندخل إلى الكعبة..

القزم : وأجابت نائلة وهي تلهث.. أتجرؤ! فأمسك إساف يدها وقال..

نبيل : سأجرؤ، إذا قبلتِ.

القزم : فأجابته بصوت يذوب وجداً.. سأتبعك، إن ملكتَ الجرأة. هيا.. رددي..

إيفا : **(محاولة التغلب على خجلها)** سأتبعك إن ملكت الجرأة.

نبيل : هيا إذن.. لن نجد مكاناً نروي فيه أشواقنا، أرحب من هذا المكان.

القزم : وحين اقتربا من الباب، تلكأت نائلة وغمغمت.. أخشى عليك من غضب الآلهة.

إيفا : **(مرددة)** أخشى عليك من غضب الآلهة.

نبيل : **(مندمجاً في دوره)** العاشق الحر لا يخشى الآلهة. قولي.. أتريدين التراجع؟

إيفا : **(مندمجة في دورها)** وهل أنت أكثر عشقاً مني كي أتراجع؟

القزم : نعم هذا ما قالته نائلة. تماسكت يداهما، ودخلا إلى الحرم المقدس وهما يتواثبان.

(يمضي القزم فيجر الفتاة، ثم يأتي إلى الرجل ذي الحركة العصبية، ويومىء إليه. ينهض الرجل بحركة مطيعة، وينضم إلى القزم موالياً حركاته العصبية. يرتب القزم وقفتهما حتى يتخذا هيئة تمثالين.)

الأبله : **(وهو يصرخ باكياً)** وأنا أريد.. وأنا أريد..

(يأتي النادل رافعاً عصاه. يضرب الشاب بقسوة، فيصمت. يتنحى النادل، ويعطي إشارة للقزم دون أن يختفي.)

القزم : **(إلى الرجل)** كما تعرف.. أنت الآن كبير الآلهة «هبل».

الرجل : مفهوم.. مفهوم.. أنا «هبل».

الزبائن : **(وهم يصفقون)** يعيش «هبل».. يعيش.. يعيش..
القزم : **(إلى الفتاة)** وأنت الإلهة العزّى.
الفتاة : **(صائحة بصوتها الرفيع والمغناج)** أنا الإلهة العزّى..
الزبائن : **(وهم يصفقون)** تعيش الإلهة العزّى .. تعيش.. تعيش..
القزم : وحين صارا داخل الحرم، وأمام الآلهة، همست نائلة وأنفاسها تتلاحق. إني أرتعش لهفة ونشوة..
إيفا : إني أرتعش لهفة ونشوة..
نبيل : وأنا أتضاعف يا حبيبتي شوقاً ورغبة..
القزم : وكان الإله «هبل» جاحظ العينين. تكاد حجارته ومعادنه تتفتت غضباً. قال للعزّى..
هبل : **(إنه ألثغ، ويؤدي العبارات بكثير من المبالغة)** أيتها الإلهة، لنصعقهما في التو واللحظة.
القزم : فأجابت العزّى بصوت رخو وحسي..
العزّى : اهدأ.. ولا تكن غضوباً. انتظر حتى يرتكبا ما يفسر العقاب.. (تتلكأ محاولة التذكر)
القزم : **(هامساً)** كيلا يلومنا العباد.
العزّى : نعم.. نعم.. كيلا يلومنا العباد..
القزم : واقترب إساف من نائلة ونضا عنها ثوبها. واقتربت نائلة من إساف ونضت عنه رداءه. **(وهو يلكز «نبيل» مشيراً إلى الثياب)** هيا.. هيا..
نبيل : ليس هنا.
القزم : استمتعا بالتظاهر على الأقل.
(عندما يعيد القزم العبارة، يتظاهر نبيل وإيفا بأن كلاً منهما ينضو عن الآخر ثوبه)
واقترب إساف من نائلة، ونضا عنها ثوبها، واقتربت نائلة من إساف، ونضت عنه رداءه. **(يصفق الزبائن)** وشهقت العزّى،

وهي تتمتم..

العزّى : ما أجمل هاتين الخلقتين!

القزم : وازداد هبل غضباً على غضب، ونهر العزّى قائلاً..

هبل : انتبهي إلى نفسك، أيتها الإلهة! من يسمعك يحسب أنك فرس حائلة. سأصعقهما الآن، كي أحفظ هيبتي، وأحميك من نفسك.

العزّى : **(بازدراء)** لا أحتاج حمايتك. كنت دائماً فظاً وخشناً لا تذوق الجمال، ولا تعرف إلا لغة الصواعق. انظر.. كم يبدو المشهد فاتناً وبريئاً! أنصحك أن تسيطر على غيرتك، وأن تمهلهما قليلاً.

القزم : **(وهو يساعد نبيل وإيفا على تنفيذ كلامه)** وكان إساف ونائلة يتلامسان برفق، ويتبادلان المداعبات بشغف، حتى انتهيا إلى العناق، وغرقا في قبلة متلهفة وشبقة. فصرخ هبل..

هبل : والآن؟

العزّى : سيفتتن بهما الناس، ويعبدونهما دوننا..

(يندمج نبيل وإيفا وينفذان ما يرويه القزم)

القزم : **(بلهجة بطيئة، ومثقلة بالشهوية)** وانزلق إساف ونائلة على الأرض. وهما ما يزالان متعانقين. استند إساف إلى الحائط، وجلست نائلة في حضنه. وفاضت الأشواق منهما، وتغلغل الواحد في الآخر حتى صارا جسداً واحداً يلهث، ويهزج، ويصوّت.

(أثناء ذلك، يتحلق الزبائن ومعهم النادل حول نبيل وإيفا محملقين بإعجاب ونشوة)

الزبائن : هنيئاً.. هنيئاً.. الحب والنشوة.

القزم : وصاح هبل كأنه بركان..

هبل : والآن؟ تأخرتُ أكثر مما يجب.

القزم : **(داوي الصوت، بينما يتفرق الزبائن مبتعدين..)** ومن عينيه الجاحظتين، ويديه المتوترين، أطلق على إساف ونائلة صواعقه، فتحجر الجسدان، وهما يتغلغلان الواحد في الآخر، وانطبعت على الوجهين، وإلى الأبد، لهفة الحب وآهة النشوة.

العزّى : **(وهي تقهقه)** ما أفقر خيالك! أتظن أنك عاقبتهما. كل ما فعلته أيها الإله، هو أنك أضفت إلى الآلهة إلهين جديدين، فتنتُهما تفوق ما لدينا جميعاً.

القزم : وبالفعل تحول إساف ونائلة إلى إلهين للحب، واستقطبت عبادتهما معظم أهل مكة والجزيرة. وكان عدد الأضاحي التي تقدم لهما أكبر مما يقدم لبقية الآلهة. تلك هي حكاية إساف ونائلة، اللذين تحولا بالجرأة والحب إلى إلهين للحب.

نبيل : **(وهو يضم إيفا بعنف)** وتحولا حجرين، لا يمكن التفريق بينهما.

إيفا : ما أجمل ذلك!

(يظهر الآن عدد من الندل، الذين يشبهون في اللباس والخلقة النادل الأول. يوزعون على الزبائن مباخر، يحملون هم أنفسهم مثلها. يسرع الرجل والفتاة اللذان شخصا هبل والعزّى. ينتزع كل منهما مبخرة، وينضمان إلى الجمع. يشعلون المباخر بحركة طقسية، ثم يتقدمون للطواف حول نبيل وإيفا.)

الجميع : **(يصدرون همهمة، لا تلبث أن تتوضح حروفها ومقاطعها)** أيها الإلهان المسترخيان في أبدية الحب والنشوة، أمدّانا بالقوة وجددا فينا الرغبة. علّمانا فنون الحب واللذة.. أيها الإلهان المسترخيان في أبدية الحب والنشوة، أمدّانا بالقوة وجددا فينا الرغبة. علّمانا فنون الحب واللذة.. أخصبا فروجنا بشهوة لا

تفتر، وصحة لا تدبر، واجعلانا نقضي مثلكما على فراش الحب واللذة.

(يتحول الدعاء إلى تراتيل يكررونها.. وفجأة تنطفىء المصابيح ويعمُّ ظلام كثيف. تتظاهر صيحات خوف وغضب وارتباك.)

النادل : **(بصوت آمر)** اخرسوا.. اتبعوني واخرجوا بهدوء. واحذروا، فإني سأقطع يد الذي يحمل شيئاً من المكان. ضعوا المباخر على الطاولات واتبعوني.

نبيل : ماذا حدث؟ وماذا نفعل؟

القزم : حان وقت الإغلاق.. وقريباً تظهر الشرطة. لا تخشيا شيئاً. ناولاني يديكما.

(ينهض نبيل وإيفا، فيتوسطهما القزم، ويقودهما بيديه نحو الباب. يبدون ككتلة من الأشباح)

إيفا : أين تمضي بنا؟

القزم : سأقودكما إلى العش الذي تبحثان عنه

إيفا : وأين يوجد هذا العش؟

القزم : اتركا الأسئلة والشكوك، واتبعاني.

نبيل : **(وهم يخرجون)** لم ندفع الحساب.

القزم : لا تهتم.. سيسجلون كل شيء عليّ.

- ٨ -

(يخرجون في الظلام. بعد قليل، تبدأ أضواء وردية بالتفتح في فضاء غرفة واسعة وجميلة. في الغرفة سرير عريض ومريح، مغطى بملاءات زهرية ونظيفة. الأرض مغطاة بموكيت لونها

طحيني. وهناك كنبات مريحة، ومدفأة من الرخام، وضع فوقها تمثال صغير، تحيطه أعداد متنوعة من المباخر الصغيرة. للغرفة ثلاثة أبواب. باب خارجي واثنان داخليان. أحدهما يفضي إلى الحمام والثاني إلى داخل المبنى. أما الثالث فيقود إلى شرفة، يتصل فيها سلم حديدي، ينتهي إلى شارع خلفي. في الغرفة ورود طبيعية، وفي الجو تنداح موسيقا ناعمة. قادمين من داخل المبنى، يدخل القزم ووراءه إيفا ونبيل.)

القزم : هذا هو العش الذي وعدتكما به يا أستاذ نبيل. تأملا المكان، وقولا لي، هل أعجبكما أم لا؟

نبيل : **(وهو يجول ببصره في أرجاء الغرفة)** حقاً.. إنه جميل!

(تتجول إيفا في الغرفة، ثم تتوقف مندهشة أمام التمثال.)

القزم : جميل أن يلفت التمثال انتباهك. نعم.. لقد زودنا كل عش بتمثال لإساف ونائلة، وهما ينزلقان إلى برهة الانصعاق والألوهية. من المؤسف أن بعض العشاق يقيم في العش، ولا يرى إلا السرير والحمام. هناك عشاق يعرفون كيف يمجدون العشق، ويقفون مبهورين أمام رمزه وتمثاله. منهم من يقدم نطفة من دمه، ومنهم من يقدم نطفة من شهوته، ومنهم من يقدم وردة، أو يشعل طيباً. هل تريدين أن تقدمي شيئاً لإساف ونائلة.

إيفا : نعم.. سأشعل لهما مسكاً. وأنت يا نبيل!

نبيل : وأنا أيضاً سأشعل لهما بخوراً.

(تشعل إيفا المسك في إحدى المباخر، ويشعل نبيل البخور في مبخرة أخرى.)

إيفا : **(مبهورة، وهي تمد أصابع جميلة وراجفة نحو التمثال)** أهذه هي الوضعية، التي سبقت نزول الصواعق عليهما؟

القزم : نعم.. هذه هي وضعية الألوهية التي استقرا فيها.

إيفا : هل أستطيع أن ألمسه؟

القزم : طبعاً تستطيعين أن تلمسي كل تفصيل من تفاصيل التمثال. (**هامساً**) البعض يحمله إلى الفراش، ويتمسح به عارياً كي يستمد منه القوة.

نبيل : (**وهو يلف خصر إيفا التي ترتعش، وكأنها بوغتت**) وقال إساف لنائلة.. العشاق والأحرار لا يخشون الآلهة.

إيفا : (**بنبرة حزينة**) نعم.. إننا عشاق، ولكن هل نحن أحرار؟

نبيل : هذا هو السؤال!

القزم : هناك دائماً خيارات وبدائل. وما هو جوهري بالنسبة للعشاق، هو ألا ييأسوا، وألا يقبلوا المساومات. ولكن ما لي أستنفد صبركما باللغو والفذلكة. هناك بعض الأمور الصغيرة، التي ينبغي أن أدلكما عليها قبل أن أغادركما. هذا الباب يفضي إلى الحمام. وهناك ستجدان عطوراً خاصة، وعيدان مسك، وبخوراً، وأخلاطاً مدهشة من أقاصي آسيا، فاختاروا ما يحرض شهوتكما من روائح وطقوس. وهناك خزانة صغيرة، فيها مختلف أنواع الدهون والكريمات والأكياس الواقية. إذا مللتما من الموسيقا الناعمة يمكنكما أن تديرا هذا الزر، (**ويشير إلى زر فوق رأس السرير**) ولكما أن تختارا بين موسيقا البوب الصاخبة، وبين المقطوعات الكلاسيكية. أما بالنسبة للطعام والشراب، فيمكنكما أن تطلباه عبر الهاتف. أعتقد أن كل شيء مثالي، وأن إقامتكما هنا ستكون عمراً لا ينسى، ولا يحتسب بالساعات والأيام.

نبيل : فعلاً.. هذا مكان مدهش! ولكن... هل أنت متأكد أننا في مأمن، وأن أحداً لا يستطيع أن يعثر علينا؟ إن أولادي أقوياء وعنيدون، وإذا أرادوا العثور عليّ، فسينبشون كل زوايا المدينة وحتى مجاريرها، كي يصلوا إلي.

إيفا : إننا مطاردون. كلهم يطاردوننا..

القزم : اطمئنا.. اطمئنا. هؤلاء الذين يطاردونكم، لا يمكن أن يدخلوا هذا المكان، ولا يمكن أن يعثروا عليكما هنا. ولكن.. هناك مضايقة صغيرة، لا تحدث إلا في فترات متباعدة. أحياناً.. تداهمنا دورية أمنية كي يحصّلوا الرشوة قبل موعدها. أو كي يضاعفوها.

نبيل : وهل يداهمون الغرف؟

القزم : إننا نحاول ترتيب الأمور معهم، دون أن يشعر الزبون. ولكن في أحيان نادرة يتعذر الاتفاق معهم، لأنهم يطلبون رشوة فاحشة، فيحاولون عندئذ مداهمة الغرف. لا تخف.. حتى في هذه الحالة، أوجدنا تدابير تحمي الزبون، وتحبط المداهمة. هنا.. الباب يفضي إلى شرفة يتصل بها درج، ينتهي إلى أحد الشوارع الجانبية. فإذا انقطعت الموسيقا، وسمعتما ببغاء يكرر بصوت أجش.. «عرص، عرص..» اخرجا فوراً إلى الشرفة، واهربا عبر الدرج الخلفي. لكن ذلك نادر الحدوث، فلا تنغصا متعتكما بالخوف والوساوس. لا شك أني أضجرتكما، وسرقت وقتاً ثميناً من خلوتكما. ولهذا سأتمنى لكما فيضاً من النشوة، وأودعكما.

نبيل : ألن نراك بعد؟

القزم : ما عادت بكما حاجة إلي.

نبيل : وضعنا معك كل ما نملك من نقود.

القزم : وما حاجتكما إلى النقود في هذا العش؟

(يخرج ويقفل الباب وراءه)

إيفا : هل تظن أن هذا المكان .. أنت تعرف.. أعني.. هل هو مبغى؟

نبيل : ليكن ما يكون. المهم أننا وجدنا ركناً نتبادل فيه الحب دون

قلق أو خوف. حين كنا في ذلك المقهى الغريب وغدونا للحظات نائلة وإساف، شعرت أن الشهوة تموج كالنار في عروقي، وأن ألمي يختفي متلاشياً.

إيفا : أنا أيضاً تسلقت جسدي الرعشات، وصدقت للحظات أني نائلة.

نبيل : وها نحن معاً.. تصوري.. هذه هي المرة الاولى التي تجمعنا خلوة كهذه. أخيراً.. سيكون لنا عيدنا واحتفالنا. سنعلق رغباتنا في هذا الفضاء الوردي كالزينات الملونة، وسنبتكر عبادات وطقوساً، لم يعرفها عاشقان قبلنا. **(يجرها إلى السرير، يبدأ بتجريدها من ملابسها.)** هذا الجسد المتوهج كمرج من شقائق النعمان، والمخيف كدوامة بحرية بلا قرار. هذا الجسد..

(تُسمع من غرفة مجاورة تأوهات امرأة تبلغ ذروة اللذة. يجمدان، وقد تغشّاهما حياء بارد. تخفي إيفا جسدها بالشرشف ويرين صمت ثقيل. بينما تخفت تدريجيا شهقات اللذة المتاهية عبر الحائط)

نبيل : **(وهو يندس قربها في الفراش)** هل شعرت بالخجل؟

إيفا : في حلقي فقاعة من الخوف والوحشة. كنا نستحق لخلوتنا الأولى مكاناً أفضل.

نبيل : هل تلومينني؟ طبعاً كنت أتمنى لو رتبنا الأمور، قبل أن نعزم على الفرار. ولكن أنت تعلمين كم هي معقدة أمورنا! لو طلبت الطلاق لحجروا عليَّ، وقصّروا أيامي.

إيفا : أعرف.. أعرف.. وأنا وضعي معقد، وحياتي سجن.

نبيل : هل أنت نادمة؟

إيفا : كم مرة ينبغي أن تسألني هذا السؤال! لا.. لست نادمة،

ولكني مهتاجة وخائفة.

نبيل : أما زلت تحبينني؟

إيفا : كما يحب الممسوسون. وأنت؟

نبيل : إنك ومضة الفرح الوحيدة الباقية في حياة كلها شقاء وموت. هذا قدرنا.. وهذا جمالنا أيضاً. سنختلس لذاتنا، ونعتصر الفرح من خلواتنا، ونراوغهم حتى تأتي ساعتي.

إيفا : أيمكن أن نراوغهم، ونواصل حياتنا على هذا النحو؟

نبيل : هذا رهاننا يا إيفا.

إيفا : ضمني إذن..

(يعانقها، وشيئاً فشيئاً يتدافع لهاثهما، وينغمران أحدهما في الآخر. وفي اللحظة التي يبدو أنهما يقتربان من ذروة ما، تتوقف الموسيقا، وتخيم برهة صمت مرعبة، يتلوها صوت ببغاء وقح يصيح.. «عرص.. عرص»)

إيفا : أليست تلك هي العلامة!

نبيل : نعم.. ينبغي أن نغادر فوراً.

(ينهضان متعبين ومحبطين.. وبحركات عصبية وعجولة يرتديان ملابسهما. ينطفئ الضوء في الغرفة، وينتشر ضوء شاحب.)

- ٩ -

(هما الآن في أحد أركان الزقاق الجانبي. إيفا تتأبط مصنفها بحرص. ونبيل يحمل بيده تمثال إساف ونائلة.)

نبيل : انظري.. سطوت على التمثال، كي نحتفظ به.

إيفا : (**وجهها خالٍ من أي تعبير**) سأذهب إلى البيت.

نبيل : كنت أعلم أنك ستعودين في النهاية إلى البيت.

إيفا : لم أقصد بيت أهلي.

نبيل : ماذا تقصدين إذن؟

إيفا : سأذهب إلى بيت طفولتي.. إنهم كالأهل، وبينهم أمضيت سنوات طفولتي ويفاعتي. كم أودُّ أن أسترجع طفولتي. ألا تتمنى أن تعود طفلاً مدللاً وخليَّ البال؟

نبيل : لا.. لا أحب طفولتي، ولا أتمنى أن أتذكرها.

إيفا : الآن سنفترق!

نبيل : ماذا تخرفين؟ لا يمكن أن نفترق..

إيفا : البيت مخصص للبنات، ولن يسمحوا لك بالدخول.

نبيل : ومع هذا.. سأرافقك.

إيفا : بعد أن أدخل، لا أستطيع الخروج، ولا يمكن أن تراني.

نبيل : اسمعي.. في النهاية، ينبغي أن أختار مكاناً، كي أموت فيه. وأعتقد أن مكاناً قريباً منك، سيكون أفضل الأمكنة.

إيفا : طيب.. هات يدك. (**يعطيها يده، فتمسح بكفها على كفه**) يا باخْ يا باخْ.. يا عرق التفاحْ.. إجى العصفور ليتوضا.. لاقى بركة من فضة.. هَيْ مسكته.. هَيْ دبحته.. هَيْ نتفته.. هَيْ شويته.. هَيْ أكلته.. دب الليلة. دب الليلة.. (**تدغدغه، فيغرق في الضحك**) هل أنت مصمم؟

نبيل : كل التصميم.

إيفا : هيا بنا إذن.

(**ينطلقان وتنطفئ الإضاءة.**)

- ١٠ -

(يظهر مبنى شبيه بالدير، وأمامه أرض جبلية تنحدر مع أراضٍ أخرى على سفوح الجبل، الذي بُني فوقه المبنى)

إيفا : هذا هو المكان.

نبيل : إنه مكان غريب، لا يشبه البيت في شيء.

إيفا : **(وهي تدق الباب بحلقة معدنية ثقيلة)** ولكن فيه ملاعب جميلة. هنا أمضيت طفولتي، وهنا سأستعيد الآن تلك الطفولة. آه.. كم أحب الأراجيح!

نبيل : ألا يمكن أن تتمهلي؟ لعلي أستطيع إقناعكِ.

إيفا : كم أحب أن أتأرجح.. وأتأرجح.. وأتأرجح..

نبيل : وأنا.. ألم أعد أعني لك شيئاً!

إيفا : أنت.. سأنتظر لقاءك منذ طفولتي حتى مماتي.

(يُفتح الباب، وتطل منه امرأة في أوائل الأربعينات. جميلة الوجه، ملفوفة القامة، وترتدي ثياباً تشبه ثياب الراهبات. يتناهى من الداخل صوت بومة تنعق برخامة ورتابة، ويُشكل غناؤها الرتيب خلفية لكل المشاهد التالية.)

المرأة : **(دون دهشة)** أنتِ! هل تعودين؟

إيفا : أمي خطفت البصر من عيني أبي. وأنا أريد أن أتأرجح.

المرأة : إن الأراجيح تنتظرك.

إيفا : وستلاعبينني لعبة «هز التوتة يا توّات».

المرأة : ستجدين كل الألعاب يا إيفا. ولكن من هذا؟

إيفا : هذا نبيل. أنا أحب نبيل. وسأنتظر لقاءه منذ طفولتي حتى مماتي.

(تغيب داخل المبنى، وهي تنطُّ كطفلة لاهية.)

المرأة : كانت دائماً جميلة، وملتهبة المشاعر.

نبيل : وما هذا المكان؟

المرأة : آه.. من الصعب أن يسمي المرء هذا المكان. هل هو دير، أم مدرسة، أم ميتم، أم حضانة، أم مصح لمعالجة الخيبات والضغوط! إنه تقريباً كل هذا في وقت واحد. على كل يمكنك أن تعود مطمئناً، فهي الآن في مكان أمن، يقدم لها ما تحتاجه من حب ورعاية.

نبيل : لا يوجد مكان أعود إليه، سأبقى هنا.

المرأة : ولكن.. أنت تعرف.. المكان لا يستقبل رجالاً.

نبيل : لا.. لا أطلب الدخول. سأجلس هنا في الخارج، وأنتظر.

المرأة : **(مرتبكة)** ولكن..

نبيل : انظري.. لن أزعج أحداً. **(يبتعد عن الباب، ويختار مكاناً تبدو الأرض فيه مستوية)** سأجلس هنا.. ولن أزعج أحداً. **(يجلس على الأرض جلسة من يمارس اليوغا)**

المرأة : أخشى أن تثير فضول البنات، أو تخلق لنا بعض المتاعب.

نبيل : تعالي.. اقتربي.. **(تقترب منه)** لن يطول بقائي. سأموت بين لحظة وأخرى. كان وجودها معي، هو الذي يغذي بارقة الحياة في جسدي المتهالك. تخيلي.. يبدو أني كنت أحبها، وأنتظرها منذ ولادتي. ولكن لم ألتق بها إلا بعد أن داهمني دائي، الذي سأموت به.

المرأة : وهي؟

نبيل : قالت إنها تحبني حب الممسوسين. ولكن فجأة تذكرت هذا المكان، وقررت أن تعود إلى ملاعب طفولتها.

المرأة : ومن منّا لا يحب أن يهرب من ضغوط العمر، إلى ملاعب

الطفولة ولهوها! اسمع.. جعلتني أشعر بالتعاطف معك. **(تفتح ثوبها، وتخرج ثديها الأيسر).** لا شك.. أنك أنت أيضاً تشتاق إلى طفولتك، وحضن أمك. **(تدني ثديها من فمه)** خذ.. يمكنك أن ترضع.

نيل : **(يشيح بوجهه)** لا.. لا أحب طفولتي، ولا أريد أن أستعيدها.

المرأة : ماذا تحب إذن؟

نبيل : أن أمضي إلى الأمام.

المرأة : إلى الموت؟

نبيل : نعم، إلى الموت.

المرأة : أنا آسفة.. وإذا شئت، أستطيع أن أسرّب لك بين وقت وآخر شيئاً تأكله.

نبيل : لا.. لا أريد شيئاً.. سأجلس وأنتظر.

(يتلاشى الضوء عنهما. بعد فترة تظهر بقعتا ضوء؛ واحدة تغمر المرأة وهي تقف أمام الباب، والثانية تغمر شكلاً حجرياً يشبه الجنين أو فلقة القلب أو العناق.)

المرأة : وتوالت أيام.. وبعدها أيام.. كانت إيفا تتأرجح، وتكرر مع نحيب صديقتها البومة.. «أمي خطفت بصر أبي، وأنا أنتظر نبيل». منذ دخلتْ هذا المكان لم يلفظ لسانها إلا هذه العبارة، مهما كان السؤال الموجه لها، أو الرغبة التي تريد التعبير عنها.. لم تفعل شيئاً إلا التأرجح والرسم. ترسم وتمزق.. ترسم وتمزق.. ومع هذا أنقذت سبعمائة وواحد وثلاثين لوحة، كلها تكرر وجهه وملامحه دون أن تتشابه. وحين يتأملها المرء واحدة تلو الأخرى، يحسُّ أن وجه الرجل يتدفق باستمرار كالأنهار الجارية.. ومرت أيام.. وبعدها أيام، وكان نبيل يضوي جسده، وقطرة قطرة تتسرب حياته. وذات صباح نظرت من الباب، فوجدته منقلباً على جنبه،

منطوياً على نفسه، ويداه تتشبثان بتمثال صغير، وتخفيان تفاصيله. كان ميتاً يشبه الجنين، وأحياناً أراه يشبه فلقة القلب، وأحياناً يشبه العناق. وتوالت أيام.. وبعدها أيام.. وتحول الميت إلى صخرة تشبه الجنين أو فلقة القلب أو العناق. وفي ملاعب الطفولة، كانت إيفا تكبر وتشيخ.. ترسم، وتردد بلا كلل.. «أمي خطفت بصر أبي، وأنا أنتظر نبيل.»

(تتلاشى الإضاءة ببطء شديد)

ذاكرة النبوءات

كان الموعد بعد الظهر.. وكان اليوم السادس والعشرون من تموز حاراً جداً في باريس. دخلت ومعي زوجتي، والصديق النبيل عمر أميرالاي، إلى عيادة الدكتور إكسترا في مستشفى «سان لوي»، والدكتور إكسترا أخصائي بتشخيص وعلاج الأورام. ذلك اليوم كان متجهم الأسارير، وتقريباً لم ينظر إلينا. بعد تحية مقتضبة، دعانا للجلوس، وفتح الملف الذي تجمعَّت فيه التقارير المخبرية، وتحاليل الدم والصور الشعاعية. قال بسرعة وكأنه يريد أن يفرغ من مهمة مضجرة:

ـ خلافاً لتوقعاتنا، كشف تحليل الخزعة الكبدية عن وجود خلايا سرطانية.

سألت بصورة آلية.. (بعد شهرين من الدوران في حلقة مفرغة من عيادات الأطباء في دمشق وباريس، ومن إثبات الورم ونفيه كنت قد استهلكت كل الانفعالات القوية):

ـ وما نوعه..؟

أجاب الدكتور، وهو ما يزال يتحاشى النظر إلي:

ـ إنه من النوع الذي أصابك منذ سنتين.

قلت:

ـ وماذا تقترح..؟

أجاب:

ـ ليس هناك ما يُعمل إلا علاج كيميائي مكثف ومديد.

قلت:

ـ أخشى ألا أتحمل مثل هذا العلاج.

قال بيرود:

- ربما.. ولكن ليس أمامك إلا العلاج الكيميائي.

سألت:

- كم هي فرصتي..؟

انتفض، ونظر في عينيّ. كانت تلك أول مرة ينظر في عينيَّ مباشرة. قال:

- ولكن حالتك غير قابلة للشفاء.

- إذن ما فائدة أن أطحن فضلة قواي بالجرعات الكيميائية..؟

غمغم، وهو يحاول أن يكتم نبرة غضبه. كان غاضباً منذ البداية. وقد فكرت طويلاً فيما بعد، لماذا كان غاضباً! هل كان غاضباً من تسرعه في استبعاد الورم؟ أم كان غاضباً من تقرير المخبر.؟ أم من أسئلتي.؟ أم من حر هذا النهار الفظيع.؟ لا أدري.. وفيما بعد خطر لي كثيراً أن أتلفن له، وأُطرح عليه هذا السؤال، لكنني قرفت من الأمر كله. المهم.. بعد ظهر ذلك اليوم غمغم الدكتور إكسترا قائلاً:

- لا أدري.. لكي نخفف آلامك، ونُمِدَّ قليلاً في أيامك.

وكان ما تلا ذلك حديثاً أجوف عن الإجراءات، وتحضير بروتوكول العلاج، وإرسال تقرير إلى طبيبي الأصلي في المستشفى الأمريكي.

خرجنا من العيادة، وكان الصمت عُكازتنا كي نتماسك، ونمشي بخطىً متزنة. حتى زوجتي التي لا تعرف الفرنسية، والتي كانت تنهكني بعد لقاء أي طبيب بالأسئلة، وطلب التفاصيل، اكتفت هذه المرة بجواب مقتضب (سرطان غير قابل للشفاء). ثم التفَّ كل واحد منا بصمته، ومشينا في أروقة المستشفى الشبيهة بممرات في مقبرة جميلة وجيدة التنظيم. في البهو كان ينتظرنا الأخ محمد مخلوف، الذي حملنا إلى المستشفى بسيارته. ومن الغريب أنه اكتفى بالنظر إلينا ولم يطرح أي سؤال. كان الصمت ثميناً في ذلك الوقت، وكنت أندس فيه كأنه شرنقة أو ملاذ. اتجهنا إلى المصعد كي نهبط إلى المرآب.. قاع فسيح ومقطع على شكل المتاهة، تتراصف فيه

السيارات كالتوابيت الأنيقة. كنت وحيداً ومحاصراً. كان العالم حياً وصلباً لكنه يتسرب مني متنائياً ولا مبالياً.. إذن لقد انتهت الحدوتة، ولم تعد يدي تقبض إلا على الرمل أو الماء. كان عليَّ أن أرتب الخاتمة، ومع هذا كنت عاجزاً عن التركيز، وكان ينقصني الحس الفاجع. كانت حالتي مزيجاً من السديم والخواء.

في السيارة ونحن نجتاز شوارع باريس، التي تتدفق فيها الحياة، ألحَّ عليَّ السؤال.. والآن ما العمل..؟

ووجدت نفسي أجيب: أن أغوص أعمق فأعمق في الصمت والعزلة، وأن أفك روابطي مع الحياة والأهل والأصدقاء وهذا العالم بكثير من الأناة، وأقل قدرٍ من الضوضاء والعويل. لم يخطر ببالي أن أقاوم، ولكن في الوقت نفسه لم أكن متأكداً أني يائس. كنت أطفو على مصيري دون فجيعة، وكنت أدخن سيجارتي بشهية طيبة. في البيت كان الحر شديداً. حافظنا وبتواطؤٍ عفوي على ميثاق الصمت. كان محمد قد تركنا على باب البناية متمنياً لي الشجاعة، وبدت لي كلمة الشجاعة مضحكة، وظللت أكررها في سري طوال صعودي الستين درجة التي تفضي إلى باب شقة عمر. ما معنى الشجاعة؟ وماذا تفيد الشجاعة رجلاً تقرر رحيله؟ ولماذا ينبغي أن أكون شجاعاً؟ لماذا لا يحق لي أن أنهار، وأن أُعوِلَ، وأن أبكي كل سوائلي. باغتتني رغبة حارة بالبكاء، وبالفعل ذرفت دمعتين يتيمتين، لم أجد بعدهما ما أذرفه. أليس العجز عن البكاء هو جزء من هذا الخواء الداخلي الذي كان يهيء موتي، ويعلن عنه؟

كانت فايزة تهيء القهوة (رائحة البن طيبة وشهية حتى بالنسبة لرجل سيموت)، وكان عمر يرد على المكالمات الهاتفية المتوالية. كان الأصدقاء يعرفون أن النتيجة ستظهر اليوم. ومع كل مكالمة كان عمر يجتهد في صياغة النبأ كي لا يبدو كالنعي. كانت مراوغاته طريفة، ولكنها لم تكن تفعل شيئاً إلا تأكيد النعي. وكان يغمزني سائلاً إن كنت أرغب في الكلام، وكنت أشير

له بالنفي. رغم محبتي لهؤلاء الأصدقاء كنت زاهداً في الكلام معهم، أو سماع لعثماتهم المرتبكة. انشق برزخ بين عالم الأحياء، ومنفى هذا الذي سيموت. لم يبق هناك ما يقال. لم يبق هناك ما يعمل إلا فك الخيوط و كتابة الخاتمة.

لقد تبادلنا المراوغات والأمل قرابة شهر من الزمن. حين وصلت إلى باريس عصر ذلك الاثنين المشمس، كان فاروق وفايز وهالة ويوسف ينتظرونني في المطار، وحين كنت أعانقهم كنت ألمح، ولو بصورة مختلسة، موتي في عيونهم. علمت فيما بعد أنهم تحاملوا كثيراً على أنفسهم، وأنهم انفجروا بالبكاء فور عودتهم إلى بيوتهم. منذ أحاطني الأصدقاء في المطار، أدركت وضعي الذي تخيلته مراراً، والذي عشته مراراً كتوجسٍ مؤقت وعابر. إني وحيد.. لا.. سأكون جاحداً لو وصفت حالتي بالوحدة. والأدق، أن أقول إني مهجور. نعم.. حدث ما كنت أخافه دائماً، وما تخيلته ذات يوم، غداة محاولة انتحاري الفاشلة عام ١٩٧٩، حين كنت أنتظر أن يفرغ الدكتور جمال الأتاسي من مرضاه في الغرفة المجاورة لمكتبه. هي غرفة عالية الجدران، مكسوة بالإهمال والغبار. يومها شعرت أني مهجور كيوسف الذي تخلى عنه أخوته، وأن العالم بأضوائه وضجته وإيقاعاته التي لم أعد أفهمها، ومباهجه التي لم يعد لي نصيب فيها، يمضي مبتعداً، تتناءى ضجته، وتتخافت أضواؤه. إنه يمضي لا مبالياً كأنه يلعب أو يلهو، بينما يغوص المهجور في الوحشة والعتمة والصمت لحظة بعد لحظة. هذه اللوعة لا يمكن أن يصفها، أو يعرف رهبة مذاقها، إلاّ من سكن جسده الموت، وأصدر عليه طبيب غاضب مثل إكسترا حكماً مبرماً بحلول الأجل.

ما زال عمر يتلعثم ويضطرب على التلفون، ووزَّعت فايزة فناجين القهوة علينا.

تغلغلت رائحة القهوة في صدري كأنها دفقة حياة.. دفقة حياة! لو يستطيع المرء أن يحصي عدد الكلمات التي تفقد كثافتها، وتغدو لغواً بالنسبة

للمحكوم بالإعدام! حقاً.. كم كلمة يحتاج المحكوم بالإعدام! ولكن ألم يخطر لي كثيراً أن أعيش «الآن» فقط، وكأن هذا الآن يشتمل لحظات الزمن الثلاث. الآن سأوقظ حواسي من خدر العادة، وأشحذها كي تغدو مرهفة ونفاذة. ستتقاطر علي مذاقات البصر والسمع والشم والطعم واللمس، كانبهاراتٍ لم أعرف مثلها من قبل. وفي هذا «الآن» الذي يُخفي الشعور بالتألق والمتعة تآكله الخفي، قد يحس المرء، أنه يحيا ديمومة لا تبالي بالمستقبل وما يحدث. ولكن.. اللعنة! من يستطيع أن يخدع نفسه. ليس بوسع المرء أن يفعل أو يستمتع أو يبدع، إلا إذا كان وهم خادع بالأبدية، يهدهد أعماقه، ويطامن نفسه.

* * *

في اليوم التالي، استيقظت على قرع حبات المطر على السقف القرميدي المائل في شقة عمر. غسلت وجهي، ونزلت الدرج شبه العامودي إلى غرفة المعيشة. كانت فايزة في ركن المطبخ تهيء إفطاري. كان عمر يجلس على الديوان الصدراني جلسته البوذية الهادئة، إذ يضع في حضنه مخدة يريح يديه عليها، ويبقى هادئاً ساكناً ما شئت من الوقت. تهالكت على كومة البسط، التي تعودت الجلوس والتمدد عليها، ونظرت من النوافذ الكبيرة. فاجأني المنظر.. كانت هناك طبقات متراكمة من غيوم سوداء وكحلية، تحجب السماء، وتكاد تلامس السطوح القرميدية السوداء. كان الضوء رمادياً شحيحاً، وكان الوقت غريباً يصعب تعيينه. هل نحن على عتبة الليل، أم أن النهار عليل، لا يجد ما يكفي من القوة، كي يبدِّد ظلمات الليل، وينشر أضواءه! فكرت باستخفاف.. لعل عناصر الطبيعة تحاول، أن تبدي تضامنها الخفي مع حالتي. وعلى كلٍ كان الطقس جنائزياً، وكان يذكرني على نحوٍ غامض بليلة شتائية بعيدة، فيها ضوء شاحب يمطُّ الظلال، ولا يبدد العتمة، وفراش صغير، وعروق من الآس، ورائحة خشخاش، وطفل يبكي ولا ينام. كان ذلك في غرفة الحجر والإسمنت لا في البيت الترابي، وكانت هناك

امرأتان، واحدة عجوز صبوحة الوجه حنونة القسمات واللفتات، والثانية شابة جميلة وعصبية وخائفة.

هذا الصباح، لم يسألني عمر إن كنت قد نمت جيداً، ولم تقصَّ فايزة ما رأته من أحلام متفائلة. لم تكن نظراتنا تلتقي. كان كل شيء بطيئاً، وثقيلاً. وقد ساعدنا الطقس الغائم، كي نوارب، وكي يشرد كل منا مع حركة الغيوم وخيوط المطر، وهذا الكفن الجنائزي الذي يغطي ما تكشفه النوافذ من بنايات الحي الثاني في باريس.

بعد أن فرغت من قهوتي وسجائري الثلاث المتعاقبة، ارتدينا ثياب الخروج، وذهبنا كي نجمع، و نختتم ملفي الطبي المبعثر. كان لدينا موعد صباحي مع طبيبي الأول، الدكتور مشاقة في المستشفى الأمريكي.

كان الدكتور مشاقة لطيفاً وبارداً كعادته، وكان مزاجي رائقاً ومشبعاً بالاستخفاف. سألته بهدوء:

- هل توافق الدكتور إكسترا على أن مرضي لا برء منه؟

قال وكأنه يطحن الكلمات بأسنانه:

- يبدو.. ربما.. كأن الأمر كذلك.

قلت له:

- هو يقترح علاجاً هجومياً ومكثفاً. فهل تظن أن حالتي الصحية تسمح بمثل هذا العلاج؟

- لا أدري.. ربما ليس سهلاً أن تتحمله.

قلت له:

- لا تلمني يا سيد مشاقة إذا قلت لك، إني لم أفهم المنطق الذي تحدث به الدكتور إكسترا البارحة، كما أني لا أفهم انقلاب وجهة نظرك من أن مرضي جديّ وليس خطيراً، إلى القول بأنه ليس لدي أي أمل، وبأنك تقترح علي رغم ذلك علاجات، لن تفعل إلا تنغيص أيامي الأخيرة، ومضاعفة أوجاع وآثار السرطان، بأوجاع وآثار الجرعات الكيميائية.

كان هو الآخر يتحاشى أن ينظر إلي مباشرة، وكان طوال الوقت يتشاغل بالعبث بيعض أدواته المكتبية. تريث قليلاً، وران صمت كأنه قصف الرعد. ثم رفع وجهه الذي دبّت فيه حرارة ما، ونظر إلي قائلاً:

ـ اسمع.. أنتَ مريض غير عادي. وأنا لم ألتقِ بكثيرين مثلك. إنك مثقف وواعٍ، ولديك الشجاعة لمواجهة وضعكِ بعري ودون تجميل. أنا لا أستطيع أن أنفضّ يدي منك، قبل أن أقدم لك كل إمكاناتي، وما تتيحه لي معارفي العلمية.

سألته:

ـ أهي راحة ضمير؟

فأجاب كالمتعب:

ـ لا.. هو واجبي، وحرصي عليك.

ران صمت آخر. ولم يبدِ عمر أو فايزة أي رغبة في التدخل أو الاستفسار. فجأة نظرت إليه بهدوء، وسألته بلهجة هادئة ومحايدة:

ـ في تقديرك.. كم تبقى لي من الوقت؟

انكسرت نظراته، وتريّث زمناً، ثم قال بصوت خفيض:

ـ ربما.. ستة أشهر.

قلت مستخفاً:

ـ هذا وقت كافٍ. ما رأيك أن تصف لي بعض المسكنات القوية؟

فأسرع يتناول ورقة وصفات طبية، وهو يكرر: طبعاً.. طبعاً.

حين ناولني الوصفة، ورافقنا إلى غرفة السكرتيرة، كي تهيء لنا ملفي المرضي وبروتوكول علاجي، كان واضحاً أنه يتنفس الصعداء، وأنه يخرج من مأزقٍ كئيب ومربك. سلّم عليّ بحرارة، وعبّر عن سعادته بالتعرف عليّ، ثم أدار لنا ظهره متعجلاً، وعاد إلى مكتبه بالخطى الخفيفة، التي يعود بها المشيعون من المقبرة.

ونحن نخرج من المستشفى، أشعلت سيجارة، وبدأت أدندن «تحت

هودجها و تعانقنا» تلك الأغنية التي تعودت الترنم بها كلما سكرت.

لم أكن خائفاً. لم أكن حزيناً. ونوبات الرثاء للذات لم يحن أوانها بعد. وكان هذا اليوم الغائم والماطر علامة. كان يفتح درباً مهجورة في ذاكرتي، وكنت أتلمس بخفة فكهة نبوءة قديمة، لم يعد يذكرها أحد سواي..

منذ سنتين، وأثناء إصابتي الأولى، أجريت علاجي الشعاعي في باريس. يومها استمر العلاج قرابة شهرين ونصف. وحين عدت إلى دمشق، قررت أن أزور أهلي كي أطمئنهم عليّ، قبل أن أستأنف علاجي الكيميائي ومتاعبه.

سافرت يوماً واحداً إلى القرية. وهناك تدفق الأهل كأمواج من اللهفة والحنان. وكان أبي الذي لم يعرف حقيقة مرضي إلا منذ فترة قصيرة، يبدو متهالكاً وشديد العاطفية. أمي لم تكن تعرف ما هو مرضي، وحين قيل لها، لم تشأ أن تصدق. إن بوادر خرفٍ مبكر حمتْها من صدمة، ما كانت لتتحملها.

طبعاً.. كنت قد أخبرتهم، أن الطبيب الفرنسي أكدَّ شفائي. ولذا كان هناك، كما يحدث عادة بعد اجتياز المحن الصعبة، استرخاء وغبطة. وكان أبي وابن عمي وأختي يتفاخرون بالإهتمام، الذي أبدته الدولة والصحف بمرضي. بل إن أبي رأى في المرض نفسه مصدراً للعز، ومناسبة لعلو الشأن.

كل هذا عادي، و ما كنت لأرويه، لولا أني أردت الوصول إلى تلك اللحظة الغريبة، التي تشبه مقطعاً مُتَبْلِراً وواضحاً في سيولة ذلك اليوم المفعم بالعواطف والإنفعالات. لحظة لم أعد أذكر ميقاتها. هل كانت يوم وصولنا، أم غداة الوصول، وقبل أن تحملنا السيارة عائدين إلى دمشق. لحظة خلوت فيها مع أبي. أذكر وجهه هادئاً، وربما محايداً. أذكر صوته تقريرياً وحاسماً. استغرقتني الحيرة، وأصغيت إليه كالمأخوذ. قال: «هذا المرض أصاب زوج عمتك رشيد جوهرة، وفي بلعومه، فعولج في دمشق وشفي منه. ولكنه بعد طبق السنتين عاوده المرض، وأودى به.» ثم صمت.. كان يحكي مثل عرّافٍ يطلق نبوءة، أو عالم يقرر حقيقة علمية. لم تعكر وجهه أية انفعالات. ولم يخفف الإحتمالاتَ السيئة، التي ينطوي عليها الخبر، بكلمات التعوذ

والعبارات التي تبعد الشر، وتتوسل منع الأذى، وإقصاء المشابهة.

هي لحظة غريبة، لا أعرف ماذا كان أبي خلالها. هل كان ملهَماً؟ هل كان عرّافاً؟ هل كان نذيراً؟ هل فاضت معرفةٌ قديمةٌ ومتخمرة في داخله، وانسكبت غصباً عنه، ودون أن يود انسكابها. طبعاً.. بعد قليل عاد أبي يتهالك عاطفية وحناناً، ويحوطني بكل ما يملك من الرعاية والحب. ولكن.. ظلّت تلك اللحظة تعاودني مثل الهاجس، فأجفل استغراباً ودهشة.

الآن.. بعد أن عاودني السرطان مع طبق السنتين، وبعد أن تنبأ لي طبيبان جليلان بأن حالتي ميئوس منها، أستطيع أن أجمع النبوءات، وأن أكتشف أن ما قاله أبي في تلك الخلوة التي جمعتنا منذ سنتين، لم يكن إلا معرفة قديمة ومتخمرة، فاضت من دنان وعيه الباطن.

* * *

فراش صغير، وعروق من الآس، ورائحة خشخاش، وطفل يبكي ولا ينام.. لم يكن أحد قد تهيأ لولادته حياً. كان يسود الجميع اعتقاد شبه فاجع، بأن العروس الجديدة ستلد طفلاً ميتاً. ولذا لم يعبأ أحد، بما في ذلك العروس نفسها، بتحضير ما يحتاجه الطفل من ثيابٍ وخرقٍ وسرير هزازٍ. وعندما ولد حياً، لم يتخلَ أحد عن اعتقاده بأن كل شيء مؤقت، وأن الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي الموت. ولكن.. بعد مرور ساعاتٍ، لم يظهر خلالها الموت، ولم يرمل إشارة تُنبىء بقدومه الوشيك، بدأت الحيرة تنتاب الجميع. في هذه اللحظة.. قررت الجدة أن توقّع موت الطفل وهو يضطرم بالحياة، قد يكون فألاً سيئاً يرافقه طوال عمره. ثم إن بواشق ابنها، وهو المولع بالصيد إلى حد الهوس، لا تصلح دائماً لحمل رسائل المشيئة الإلهية. ولهذا أمسكت بالمبادرة، فبدّدت ما يمكن أن يكون قد علق به من فألٍ سيء، وسمّت الطفل الذي يبكي «سعداً». وكانت راحة مزدوجة بالنسبة لها أن الاسم الذي يعد الشؤم، هو في الوقت نفسه اسم زوجها وحبيبها، الذي رحل عنها، وهي ما تزال شابة. كذلك بادرت إلى ارتجال، أو استعارة ما يحتاجه الطفل من ثيابٍ

وخرقٍ وأشياء أخرى.

أذكر نواسةً تمط ظلالها، ولا تبدد العتمة.. أذكر فراشاً صغيراً، وأعواداً من الآس، ورائحة خشخاش، وطفلاً يبكي ولا ينام.. وكانت هناك امرأتان، الصبية أمه. والمسنَّة جدته.

وبعد سنوات.. وفي ليلة شتائية باردة، روت لي جدتي، وأنا مندس في حضنها، حكاية ولادتي ونبوءة موتي. «يا الله.. ما كان أطيب أنفاسها، التي كانت لفحاتها تتباين ليناً وشدة حسب إيقاعات الكلام.»! قالت لي: «كانت خالتك فاطمة (هي زوجة أبي الأولى) حاملاً بأخيك يوسف. وقبل أن يحين موعد ولادته بفترة قصيرة، رأى أبوك فيما يرى النائم، و هو كما تعلم، حماه الله من كل أذىً، وأبعد عنه كل سوء، مولع جداً بصيد الباشق. رأى اللهم صلي على النبي، أنه اشترى باشقاً أبيض، وكان فرحاً بشرائه. ولكن عندما وصل إلى البيت، وأراد أن يربط الباشق على قصبته الموجودة في الدكان، اكتشف أنه يقف على قائمة واحدة، بينما يرفع الأخرى ويخفيها في ريشه. تفحصها، وحاول أن يفردها، فوجدها معطوبة. شعر بالحزن، وحدَّث نفسه في الحلم، بأن هذه علامة سيئة لا تبشر بالخير. وحين استيقظ، كان متكدر المزاج، ولم يخبر أحداً بما حلم. ولكن حين بشروه بأن امرأته وضعت صبياً أبيض جميلاً لم يشعر بكثير من الإنشراح، وحين تبين بعد أيام، أن يد الطفل اليسرى مصابة بالفالج لم يُفاجأ، وتمتم.. جاءني هاتف في الحلم، وأخبرني بهذا كله. وكان أبوك ينتظر الولادة، كي يتزوج امرأته الثانية، وهي أمك. وبعد شهرين أقام عرساً ستمرُّ سنوات كثيرة قبل أن ينساه أهل القرية، والقرى المجاورة أيضاً. لقد أراد أبوك أن يكسر عيون الجميع، لا سيما وأنه كان ينتزع البنت التي تهواه، والتي تخلَّت عن ابن عمها الذي كانت مخطوبة له، من بيت أهلها وسط معارضات وتهديدات الأقرباء. (فيما بعد.. بالإلحاح والرجاء، جعلتها تروي، مراراً وتكراراً، قصة زواج أبي وأمي، وما أحاط بها من ملابسات.) المهم.. تم العرس، واستمر الفرح سبعة أيام بلياليها، دون أن

تنغصه مشاكل أو جهالات. ولكي لا تطول السيرة، حملت أمك بعد العرس بقليل، وحين تقدم بها الحمل، رأى أبوك فيما يرى النائم، اللهم صلي على النبي، أن لديه باشقاً أسمر اللون، لم يمتلك في حياته باشقاً في مثل سرعته وبراعته في القنص. وكان يحبه حباً يندُّ عن الوصف.. ولكن ذات يوم.. وكان يصيد في سهل البرج، طارت أمامه دُراجة، فأطلق الباشق عليها. قنصها الباشق بقادمته اليسرى، ثم جنح مبتعداً، واتجه نحو الشرق حتى اختفى بين كروم الزيتون البعيدة. وجرى أبوك ومعه عدد من الصيادين وكلاب الصيد نحو الكروم، وبحثوا طويلاً عنه، فلم يقعوا على أثرٍ له. لا رنين الجرس المعلق في رقبته، ولا ريش الدُراجة التي قنصها. ثم رأى أبوك أن الليل قد هبط، وأن الصيادين يعزونه وكأنهم في جنازة. ورغم قسوة أبيك فقد وجد نفسه يبكي في المنام. وحين استيقظ كان ريقه جافاً، وصدره ضيقاً. أيقظ أمك وقال لها: «اسمعي يا امرأة.. الله يعطي والله يأخذ. وليس لنا عوض إلا عند الله سبحانه وتعالى. ما في بطنك ميت. إما ستلدينه ميتاً، أو سيموت بعد ولادته بقليل». وبدأت أمك تعول، فنهرها وقال لها: «احمدي الله ولا تعترضي حكمه». وبعد أن صحَّ منام أبيك عن أخيك يوسف، لم أجرؤ، ولم يجرؤ واحد من الشيوخ، الذين طلبت تأويلهم، على أن يرى في المنام إلا موت الطفل. ولكن الله كبير، وهاأنت تحيا، ولم يصبك أذىً. وبعونه تعالى لن يصيبك أذىً، وستعيش حتى ترى مثلي أحفادك وأولاد أحفادك».

ما زال أبي حياً.. وأطباء باريس حفروا لي القبر، وجهزوا لي الكفن. أكان مقرراً أن تتحقق نبوءة عابرة، اكتست ثياب حلمٍ صيفي، بعد نصف قرن من الزمن!

* * *

قال عمر:

- بدلاً من السفر على عجل بطائرة الخميس - أي غداً - لماذا لا نسافر بطائرة يوم الأحد، لا سيما وأن طيرانها مباشر إلى دمشق، كما أنه سيكون

لدينا استراحة قصيرة، نتأمل فيها الوضع، ونستعد لما سيواجهنا في دمشق.

في البداية فرحت بالإقتراح. ولكن منذ اليوم الثاني غدت الإقامة في باريس كابوساً خانقاً. كنت عاجزاً عن التركيز، وما كان أحوجني إلى التركيز! وكنت عاجزاً عن البكاء، وما كان أحوجني إلى البكاء! وفي أوقات متفرقة، تحت غلاف الصمت ولزوجة وضعنا، كانت تصيبني لحظات هلع مريعة، يستحيل تحملها، لولا أنها تمر قصيرة وعابرة.

قال عمر بصوت خفيض، وكنا وحدنا:

ـ أعرف أن ذلك يدور في ذهنك.. وأعرف أنك تبذل مجهوداً كبيراً لكي ترتب كل شيء. لا أستطيع أن ألومك. ولسنا في مجال يسمح لي أن ألقي عليك دروساً وعظات. ولكن صدقني ليس كرماً أن تجنب نفسك، وأن تجنبنا كما تظن، عذابات المرض والاحتضار. بل الكرم الفعلي، هو أن تجعلنا نشعر أنك فعلت كل ما تستطيع فعله من أجلنا، وأن تعطينا فرصة، كي نخفف قليلاً من القهر الذي نحسُّه عبر مرافقتك، والعناية بك، ومشاطرتك بعض عذاباتك. نعم.. الكرم يا سعد هو أن تتيح لنا أن نفقدك بالتدريج، ونحن نقدم ما نملكه من حب ووفاء وعطاء. لا تحرم ابنتك وامرأتك فرصة التدرب على الموت، وفرصة الشعور بالعزاء لأنهما قدمتا كل ما يمكن تقديمه. لا أدري.. أعتقد أن هذا الخيار هو الأكثر كرماً ونبلاً.

كانت إبرة الراديو مثبتة دائماً، وطوال الشهر الذي قضيناه في بيت عمر، على محطة فرنسا الموسيقية. وطوال النهار كانت تتوالى أعمال الموسيقيين الكبار. وفي ذلك الوقت الذي كان يتحدث فيه عمر عن الكرم، كانت تتناهى من المذياع إهزوجة فيفالدي «الفصول الأربعة». يوم السبت جاء أدونيس وخالدة وأرواد وفاروق مردم وفايز ملص وشريف خزندار ومحمد مخلوف وزوجته أمينة. هذا لقاء استثنائي، ونادراً ما يتم في باريس. بعضهم لم يرَ البعض الآخر منذ سنتين أو أكثر. كانوا مهتاجين باللقاء، وكانوا راغبين جميعاً بالكلام، وكأنهم يريدون أن يردموا فجوات غير مرئية، أو أن

يستدركوا بعضاً من الزمن الذي فات دون أن يلتقوا خلاله. يا الله.. كانوا أحياء جداً! كانوا يتحدثون عن المجامع اللغوية، ومشاكل الترجمة، ومشروع فاروق لرصد كل ما ترجم عن الفرنسية والإنكليزية إلى العربية، والتداوي بالأعشاب، والمستشرقين.. وكنت أتطوّى في زاويتي متدثراً بغربتي، وببعدي عن القضايا التي يثيرونها، ومشاغل الأحياء التي يستحضرونها. كانوا جميلين، وكانوا يرجون أن يمدني حضورهم بالدفء والقوة. لم يأتِ أي منهم لتأدية واجب، أو إنجاز لياقة اجتماعية، ولكن كنّا نعرف.. أنا عَبَر صمتي، وهم عبر الكلام والضحك، أن بيننا برزخاً من الحيرة والعجز، لا يستطيع التعاطف، مهما بلغت طبقاته، أن يردمه.

لأني فقدت وهم الأبدية غدوت هشاً ومسطحاً وعقيماً، ولأن وهم الأبدية ما زال يدغدغهم ويفتنهم فإنهم أقوياء يناقشون، ويعملون، ويحلمون.

* * *

صباح الأحد حملنا أمتعتنا، وذهبنا إلى المطار وسط كوكبة من الأصدقاء.

ودعوني وكأنهم يلقون النظرة الأخيرة علي.

في المطار دمعت عيناي، ووددت لو أبكي.. لو أنشج، وأنشج.

حين حوّمت الطائرة في سماء دمشق وبدأت الهبوط، كنت أعرف ولو على نحوٍ غامض أني أمسك مصيري بيدي، وأن الأسوأ قد مرَّ.

حين حطت الطائرة على مدرج المطار قلت لفايزة بلهجة ماكرة:

ـ هذه المرة لم تقولي لي الحمد لله على السلامة!

قالت وهي تغص بالبكاء:

ـ خفت أن تزعل لو قلتها لك. ولكن كيف أجعلك تقتنع بما أحسه في قلبي (خلال شهر كامل، ورغم كل الإحباطات التي سببتها تشخيصات الأطباء، فقد ظلَّت مصرة على التأكيد بأنها مطمئنة، وأن قلبها لم يمسّه الجزع بعد. وكانت اللهجة اليقينية التي تتحدث بها عن تفاؤلها تستفزني أحياناً، وتستثير شفقتي أحياناً أخرى.)

تابعت هامسة:

- أنا أصدق قلبي. وإني متأكدة أنك ستجتاز هذه المحنة، و.. الحمد لله على السلامة.

في قاعة تسليم الأمتعة جلست على مقعد. أشعلت سيجارة. كان واضحاً بالنسبة لي كيف سأكون كريماً مع نفسي، وكذلك كريماً مع أهلي وأصدقائي. فرحتُ كثيراً حين خرجت من ممر الجمارك، وشاهدت ديمة في إنتظاري. لم يسبق أن غبت عنها أكثر من شهر، إلا بعد ولادتها ببضعة أسابيع، وأثناء حصار بيروت عام ١٩٨٢. كان مع ديمة انتصار التي جاءت لاستقبالنا وترتيب نقْلِنا من المطار إلى البيت.

حين خرجنا من المطار، لفحني لهب آب. كانت هذه الأصياف الحارة تتوشح دائماً بلمسة كارثية خفية. وعلى كلٍ كانت دائماً أبشع صور الموت بالنسبة لي، جنازة تتجه إلى المقبرة وقت الظهيرة، وفي يوم صيفي شديد القيظ.

في البيت، تمدَّدت على السرير بينما جلست ديمة على حافته، وأمسكت يدي. أحسست أنها نضجت خلال هذا الشهر، وأن خوفي عليها لا يخلو من مبالغة. دفعتها برفق كي تتلمس وتتوقع احتمالات الموت. غرغرت دمعتان في عينيها، ولكنها كانت تحاول جاهدة ألا تبكي. قالت وهي تغصُّ:

- بابا.. أنت قوي. وإذا كنت تحبنا، أرجو أن تقاوم، وأن تبقى معنا.

أردت أن أخفف توتر اللحظة. قلت:

- إني بحاجة إلى فنجان قهوة.

نهضت، وهي تقول:

- هل تعدني؟

أجبت بحنان:

- إني أعدك.

مالت عليَّ وقبلتني، ثم خرجت وهي تمسح دموعها.

رحلة في مجاهل موت عابر

في جحر لا يشبه الأمكنة، وفي وقت لا صلة له بالأزمنة. في سديم لا يميز المرء فيه بداية أو نهاية، كنت ممدداً على سرير ضيق، رفعت الحواجز من جوانبه الأربعة فغدا كالقفص. في أنفي أنبوب ينقل لي الأوكسجين. أسمع وشوشة الماء وتراقصه في الحوجلة الزرقاء الخضراء، التي تحرر الأوكسجين، وتدفعه إلى أنفي. أصغي إلى الوشوشة الرتيبة. أتصور حلقة من الصبايا العاريات يرددن، وهنَّ يقطعن شتلات الحشيش بأقدامهن، ترنيمات رتيبة وبعيدة. رددت «يا كسر الأوكسجين»، ثم غفلت عن الوشوشة. لا أدري إن كنت أغيب عن الوعي فترات قصيرة ثم أصحو. حين كانت سيارة الإسعاف تعبر دمشق، كنت صاحياً رغم إرهاقي، وكنت أتتبع الطريق في خيالي، متصوراً أن السيارة ستقلني إلى مستشفى الشامي عن طريق الجسر الأبيض. ولكني فوجئت حين اكتشفت أننا نعبر نفقي شارع الثورة، وأننا نتجه إلى المستشفى عن طريق ساحة الأمويين. في المستشفى، وفي الغرفة ٢٠٨ أدركت وأنا أتلاشى، أني سأواجه المصير الذي كنت أخافه دائماً. سأفقد حصانتي الشخصية، وحيائي، وما هو حميمي فيَّ.. وسأتحول قبل الموت، جيفة عارية بين أيدي ونظرات غرباء لا أعرفهم. بعد وصولي إلى المستشفى شعرت بالحاجة إلى التبرّز. وكان مخجلاً ومريعاً أن أتبرّز في الفراش مستعملاً الزحافة. ولكن يبدو أن التدهور السريع في حالتي الصحية خفّف من نزقي، ومشاعر الخجل والاشمئزاز التي تسربلني.

في لحظة صحو قصيرة رأيت طبيبة شابة وجميلة، كانت تحاول أن تقيس ضغطي، ويبدو أنها كانت لا تسمع شيئاً، ووضعت أذنها على أحد عروق يدي، ثم أغمضت عينيّ، وكنت أودُّ أن أغيب فلا أفيق بعد. لم تكن هناك

أنفاق في نهاياتها تشعشع أضواء سماوية، ولم تكن هناك مروج خضراء، بل حلكة وفراغ. انتبهت حين قرر الأطباء نقلي، وبشكل إسعافي إلى قسم العناية المشددة. كنت أريد أن أرفض، ولكن لم أجد القوة على الرفض. ويبدو أن أحداً ما كان ليصغي لي، وأنا في حالتي تلك. في غرفة العناية المشددة التي لا تشبه الأمكنة، كان هناك طبيب شاب، عرفت فيما بعد أن اسمه سفيان، وقلت في سري.. سأسأله هل سماه أبوه بهذا الاسم تيمناً بسفيان الثوري، أم بالعائلة السفيانية! كان شاباً يتفجر صحة وعافية، ويبدو شديد الزهو بنفسه. ولأني كنت قد فقدت ذاتيتي وكبريائي، وتحولت موضوعاً بين أيديهم، فقد بدا لي زهو الدكتور سفيان نوعاً من العدوانية والتعالي والازدراء. لا أدري لماذا صفق عدة مرات، وهو يتهيأ لكي يرتدي قفازات النايلون المعقمة، كي يضع لي قسطرة البول. وحين عرّاني مع الممرضة شعرت أني منتهك حتى العظم، وتراءى لي مع الألم الشديد، أن سفيان والممرضة يتبادلان ابتسامات غامضة.

تحت وطأة الخجل والألم يبدو أني غبت قليلاً، ولكن بعد قليل بدأ الأطباء يتوافدون على جحري، وقرر واحد منهم أن يضاعف كمية السيروم التي تتدفق في جسدي. فأمر الممرضة وداد بخاري، وهي ممرضة شديدة الرقة واللطف في العادة، أن تشق لي وريداً في اليد الأخرى. ولدهشتي رأيت وجهها يتغير، وملامحها تقسو، وأمسكت يدي الواهنة بقبضة قاسية وفظة. عصرتها بين أصابعها كي تجبر العروق على البروز. شقَّت أول عرق، ولم تجده ملائماً، ثم شقَّت الثاني غير عابئة بتأوهاتي. ورغم أن الشق الثاني كان يؤلمني، فقد ثبتت الإبرة، وربطت بها أنبوب السيروم، وبدأت الأمصال تتدفق في جسدي عبر وريدين.

حتى الآن لا أعرف ما هي حالتي، ويبدو أني لست مهتماً بما سيؤول إليه أمري. ولقد تذكرت بشكل عابر، أني خرجت من البيت محمولاً على شرشف ثم على نقالة الإسعاف، وأني لم أجد الوقت كي أقول لديمة كلمة طيبة أو مطمئنة. وشعرت بالأسف.. ولكن في النهاية ربما حان الوقت كي

تودع طفولتها، وتتدرب على تحمل المآسي المحتومة.

لا أدري إذا كان الوقت يتقدم، وكان أمراً ميئوساً منه، أن أنام ولو لفترة قصيرة. الضجة في العناية المشددة لا تهدأ أبداً، يوشّحها أحياناً أنين بعض المرضى. وبسبب يدي المقيدتين بالسيروم، والأجهزة المثبتة على صدري، وأنبوب الأوكسجين في أنفي، فقد كنت مضطراً للبقاء ممدداً على ظهري، وهي الوضعية التي يستحيل عليّ فيها النوم. وعلى كل لم أكن مهتماً كثيراً بالنوم. وكان قد بدأ يطفر في داخلي مزاج تهكمي، لا أستغرب أن يكون منبعه حس وافر بالعدمية. وأخذت أتابع لاهياً وشوشة الماء المتراقص في حوجلة الأوكسجين. «يا ترنم الأوكسجين الرتيب والشجي! يا ترنم الأوكسجين الذي يُرجِّع ترنم النساء العاريات، اللواتي غطت أجسادهن أشعة القمر ونسالة الحشيش».

دخلت غنوة وماري وماهر. قالت غنوة:

ـ ستنهض غداً ونكتب بعد غد.

ربما ابتسمت، وربما شعرت بالامتنان، ولكني كنت بعيداً عن ذلك كله. لم أكن أبصر الموت، ولكن لم أكن أبصر على الإطلاق عودة الحياة التي كانت.

استسلمت رواقياً لضجعتي المرهقة، ومزاجي التهكمي، وقلت في نفسي.. لو عادت «غنوة» الآن لأمليت عليها قصة تهكمية عنوانها «الطيز الأثرية». وبدأت أتسلى في تركيب القصة. سأبدأها على النحو التالي..

[هذا الصيف خطر لي أن أمضي شهراً في قريتي. وعندما أذهب إلى القرية أقضي معظم الوقت متجولاً في الوديان، وفي كروم الزيتون، التي تغطي بخضرتها الشاحبة المفتوح التي تحيط بالقرية. وغالباً ما كنت أحمل زوادتي، وأتناول غدائي في البرية. ثم أختار زيتونة عبيّة، ألتمس في فيئها قيلولة قصيرة. وذات يوم حين استيقظت من قيلولتي، وجدت إلى جوار رأسي منحوتة طيز

من السيراميك المعفّر، والمحفور في عدة أماكن. عندما نظرت إلى المنحوتة شعرت بالغضب، وخمنت أن المسألة لا تعدو فكاهة سمجة، تريد النيل مني ومن ولعي بالآثار وأشكال الجمال، التي خلّفتها لنا حضاراتنا القديمة. وبينما كنت أعجم غضبي، وأوطّد العزم للرد على هذه الفكاهة بحزم وجدية، رأيت شاباً نحيلاً، وزري الهيئة يقترب مني. حياني وسألني إن كنت أتذكره. ترددت لحظات ثم قلت له:

ـ ألست محمد البنايوطي؟

فأجاب:

ـ حياك الله. مهما بعدت، فإنك لا تنسى أهل ضيعتك.

وتذكرت أن محمد البنايوطي، رغم هيئته الزرية، وضعة نسبه العائلي، استطاع أن يتزوج أرملة شابة وبالغة الجمال. ولأنه كان يعرف قيمة الكنز الذي حصل عليه، فقد بنى بيتاً متواضعاً في أرض، تقع على طرف قصي من الضيعة، محاولاً بذلك أن يحمي كنزه من الفسّاق والرجال الشهوانيين. ولكن مع الأيام صار بيت البنايوطي قبلة الشباب والرجال في مشاويرهم المسائية، وأحياناً الصباحية. وعندما تعب محمد البنايوطي من الغيرة والقلق على كنزه، ترك قرنيه ينموان، واستراح. انتزعني من أفكاري، وقال:

ـ جئتك بهذه القطعة فوجدتك نائماً. فقلت أضعها قربه، حتى يستطيع أن يتأملها عندما يستيقظ.

زادت شكوكي وزاد غضبي. لا بد أنهم سخّروا هذا الرجل النكرة، لكي يبدو الملعوب متقناً، والفكاهة لاذعة. قلت له بحدة:

ـ وما هذه القطعة؟

أجابني بصوت هامس:

ـ أتعلم..! كنت أنتظر مجيئك إلى القرية. فليس هناك أحد سواك يمكن أن يقدر جمال هذه الطيز. لقد كان في الأرض، التي بنيت فيها بيتي قطعة صغيرة في طرفها الغربي، لم تعرف فأساً أو محراثاً منذ آدم. وما أثار اهتمامي

في هذه القطعة هو نضارة نباتات القرّيص، التي تكثر فيها، فقررت أن أحفرها وأسوّيها، كي أضيفها إلى المساحة المزروعة. وما حفرت أكثر من ساعتين، حتى لاح لي ما يشبه الحجر الملون، فتأنّيت في الحفر. وشيئاً فشيئاً بدأت أزيح التراب، حتى بانت بكل تكوينها وبهائها. رفعتها عن الأرض، ونظفتها بحذر، وقلت.. سأخبئها، ولن يراها أحد قبل أن يأتي الأستاذ في زيارته الصيفية.

نظرت إلى الطيز، فوجدتها بالفعل قطعة رائعة من الفن والجمال. ولكن الحكاية المحبوكة، التي قصّها محمد البنايوطي، عزّزت في الوقت نفسه شكوكي وشعوري بالمهانة. قلت بجفاء:

ـ وماذا تطلب مني؟

أجاب مرتبكاً:

ـ أنا.! لست أدري. ولكن ظننت أنك أفضل من يقدر قيمتها، ويرغب في شرائها.

فأجبته بحزم، وأنا أنهض:

ـ ومن قال لك إني من هواة جمع الأطياز الأثرية! قل للسفهاء الذين رتّبوا هذه الفكاهة السمجة.. أنا أهتم بالآثار والجمال، ولست مهووساً جنسياً.

تحيّر من موقفي، وتأتأ محاولاً أن يوضح المسألة. إلا أني ابتعدت بخطىً عجلى، وقررت أن أغادر القرية في الغداة.

بعد شهر من عودتي إلى المدينة جاءني أحد الأصحاب، وقال لي:

ـ هل رأيت موجة الأطياز الخزفية التي بدأت تكتسح المدينة؟

سألته مندهشاً:

ـ أية أطياز خزفية؟

فقال لي صديقي:

ـ إن مشغل الخزف الحديث ابتكر نموذجاً لطيز أنثوية بديعة التكوين والتفاصيل. والناس يتهافتون على شرائها، ويتفننون في عرضها في بيوتهم. بعضهم يثبتها على قطعة أثاث، وبعضهم يلصقها على سيفون الحمام،

وبعضهم يثبتها على جدار في غرفة النوم، ورأيت أحدهم يصنع لها خلفية رخامية، ويحيطها بإضاءة خاصة ومدروسة.

كان دمي يفور. نهضت فجأة، وقلت له:

ـ هيا بنا إلى مشغل الخزف.

عندما دخلت المشغل، فاجأتني مئات النماذج المتراكمة لتلك الطيز، التي رأيتها ذات يوم تحت شجرة الزيتون. ازداد غضبي، وأحسست أن في الأمر استهتاراً فظيعاً، وتخريباً متعمداً لإرثنا الحضاري بفرادته وغناه. قصدت مباشرة مدير المشغل. رحّب بي بحرارة، وتصرف وكأن بيننا معرفة ومودة. قلت له:

ـ ما هذا الذي تفعله؟

أجاب:

ـ ألم يعطوك الأولوية في حيازة القطعة! ألم ترفض قائلاً إنك لست من هواة جمع الأطياز الأثرية!

أجبت بحدة:

ـ ولكن هل يبرر ذلك أن تدمر تحفة أثرية كهذه، وتحولها سلعة مبتذلة تباع بالآلاف.

أجاب الرجل بهدوء:

ـ اسمع.. أنا أيضاً لا تهمني التحف الأثرية إلا إذا كان بوسعي، أن أحوّلها سلعة تملأ السوق، وتجني لي الأرباح.

قلت:

ـ أهناك شعب في الدنيا يحوّل إرثه الحضاري إلى بضاعة للاستهلاك.

أجابني:

ـ في أيامنا هذه.. السوق أهم من التاريخ يا أستاذ. بل إن التاريخ لم يعد شيئاً آخر سوى السوق وقوانينه.

قلت له:

- لم آتِ إلى المشغل، كي ننفق الوقت في المماحكة. قل لي أين الأصل؟

أجاب هازئاً:

- استخدمناه في صنع القالب.

قلت:

- ولكن أين الأصل؟ إني أريده.

أجاب:

- وما حاجتنا إلى الأصل بعد أن صنعنا القالب! لقد انكسر الأصل عدة كسور، وهو مرميٌّ هناك في الزاوية.

توجهت إلى الزاوية، وتفحصت الطيز التي رأيتها ذات يوم تحت الزيتونة، وكانت فتنة في تكوينها وتناسقها ورائحة الأزمان التي تفوح منها، فوجدتها كحطام جرّة. شعرت بالخجل من حساسيتي، وأدركت أية فرصة أضعت، ولم يكن هناك من يستحق اللوم أكثر مني. وعندما خرجت من المشغل، وتوقفت لحظة أمام الأطياز الزاهية الألوان، والتي تحاكي تلك التحفة الأثرية، غمّني أن تغدو هذه البضاعة الاستهلاكية، التي يعرف الخبير زيفها وهجانتها، بديلاً عن ذلك الجمال، الذي يحمل روح وعرق فنان ضاع اسمه، لكن حفظت الأزمان المتعاقبة أثره، وهيّأته لمن يبحث عنه ويقدّره.]

هل أهذي! كيف خطرت لي هذه الطرفة؟ كان عسيراً عليَّ أن أركّز على حالتي. كنت أعلم فقط أني في مكان وزمان غريبين أو لا واقعين. كنت متأكداً أني أتزحلق نحو مصيري، ولم أكن أعرف ما هو هذا المصير. فكرت بالموت، ولم يكن هو الموت.

كانت فايزة لا تكفُّ عن النزول للجلوس إلى جواري. وقالت لي:

- إن أختك وأخاك وصهرك يتوجهون الآن إلى دمشق. لقد تلفن لي ابن أخيك نزار، وأخبرني أنهم استأجروا ميكروباصاً، وسافروا من طرطوس حوالي العاشرة ليلاً.

انزعجت من مجيئهم، وأصابني هلع غريب من أن يصيبهم أذىً في سفرهم المتعجل والليلي. أرهقني ما أسببه من متاعب للذين حولي. وألححت على فايزة، أن تصعد إلى غرفتنا في المستشفى، وأن تنام. كان وجهها متعباً جداً، وتحت عينيها جيبان أزرقان ومنتفخان، وقدرت أن قلبها سيتسرع بين لحظة وأخرى. ولكنها ماطلت كثيراً حتى قبلَت الصعود إلى الغرفة، ولم تنم تلك الليلة أكثر من ساعة.

كانت المشاعر تخضُني قليلاً، وتعبرني سريعاً، ثم يطفو ذلك المزاج التهكمي واللامبالي. في وقت ما طلبت من فايزة بإلحاح وغضب قرصاً مهدئاً، ولكن فايزة رفضت أن تعطيني القرص قبل أن تستشير الأطباء. واستشارت الأطباء، فاستنكروا بشدة، لأن تناول المهدئات مع ضغطي المتهافت يشكل خطراً كبيراً عليّ. ثم بدأت أسمع همسات عن الإدمان والمخدرات، فغضبت، وقررت ألا أتناول أي مهدئ أو منوم إلا حين.. (فيما بعد سأشعر دهشة غريبة حين أعلم، أن كثيراً مما كنت أسمعه، لم يكن هو بالضبط ما يقال. ولأني كنت أتابع ما يدور من أحاديث عند طاولة الطبيب المناوب الموضوعة أمام باب غرفتي، أو في الردهة الضيقة حولها، وأميّزها بوضوح لا يقبل الشك، فقد بدا لي الأمر غريباً جداً.) أتساءل.. هل كنت في حالة هلاس مستمر! لست أدري، وربما لا يعنيني أن أدري.

جاءت ميّ التي ترافق خالتها في المستشفى، أحاطتني بنظرة مفعمة بالتساؤل واللهفة.

همستُ: لن أموت قبل أن أراكِ تتألقين في المجال الذي تحبين.

أجابت: إذن.. لن أتألق إلا حين أبلغ الشيخوخة.

حاولتُ الإبتسام، وطلبتُ منها أن تتركني أرتاح.

عدت أحاول الاسترخاء، وأنا أتابع وشوشة الماء المتراقص في حوجلة الأوكسجين. وفيما كنت أصغي إلى الوشوشة الناعمة، الشبيهة بمويجة صغيرة ولطيفة، تتهادى نحو شاطئ رملي فسيح، انتبهت إلى موجة عالية من ضجيج

رتيب وخشن، هو ضجيج المكيفات في قسم العناية. وبدأت أنوس بين الصوتين محاولاً أن أحمي ترنم الماء، وأحول دون أن تطغى عليه ضجة المحركات، فلا أميّز وشوشته العذبة والمهدئة.

جاء زبون جديد إلى القسم. دخل وسط موكب من الثرثرة. سمعته يتكلم وهو يدخل، وسمعته يتكلم وهو يقف في الردهة مع الطبيب المناوب، وسمعته يتكلم بعد أن أفردت له غرفة، وشرع الطبيب المناوب والممرضتان يجرون له الفحوص اللازمة. كان يتحدث عن شكوى قلبية، وأنه أحسَّ وخزات في صدره الأيسر، فوجد أن قضاء الليل في المستشفى أدعى إلى الاطمئنان. كان في صوته الذي لا يتوقف عن الكلام، ما يذكرني بصوت يبدو لي أليفاً جداً. ثم تراءت لي رأسٌ صلعاء إلا من شعيرات قليلة، تنتصب فوق جلدة الرأس المليئة بالغضون. الوجه أيضاً رثٌّ، ومليء بالغضون. وفي اللهجة التي يتكلم بها تهديد وخبث. كنت أقترب وأقترب وأكاد أتعرف عليه، ثم يبتعد ويبتعد وأيأس من معرفته. ولكن صوت الرجل المستمر في الثرثرة، كان يجعل تلك الرأس وسواساً متسلطاً لا يمكن الفرار منه. وغدت النبرة التي تتحدث بها هذه الرأس المجهولة مزيجاً من التهديد والعتاب. وراحت الصورة تغيب وتظهر، فيما يتناهبني القلق والغيظ. وظلت الصورة تظهر وتغيب، حتى وجدتني أقول بصورة عفوية، وكأني أعرف كل شيء منذ البداية..

ـ ولكن ماذا تريد مني يا أبا رياض!

وأبو رياض هو عبد اللطيف فتحي. وقال لي على نغم صوت الزبون الذي ما زال يثرثر عن قلبه:

ـ معلوم لم تتذكرني. فمن هو عبد اللطيف فتحي حتى تتذكره!.

وأجبت محتجاً ومستنكراً:

ـ لا يا أبا رياض.. لا تظلمني. كانت تلك فجوة عابرة في الذاكرة يتعرض لها كل إنسان.. وقبل أن أتمَّ جوابي اختفت الصورة. لكن عادت بعد ذلك مراراً، وفي كل مرة تتراءى فيها أمام عيني، كنت أسأل وبصورة آلية:

ـ ولكن ماذا تريد مني يا أبا رياض!

لم أتطيّر. وحين خطر لي أنه جاء، كي يصحبني معه إلى المقام الآخر، وجدت الفكرة سخيفة وصبيانية. لكن حضوره المتكرر أتعبني، وزاد حاجتي إلى النوم. أغمضت عيني، وحاولت الاسترخاء. كان مريض القلب قد بدّل ثرثرته شخيراً صاخباً على موجات متفاوتة الطول. حاولت أن أتشاغل عن دمامة الشخير بالتركيز على وشوشة الماء في حوجلة الأوكسجين. لم أستطع التركيز، وعرفت أن النوم أمنية مستحيلة. انبثق من تجاويف الذاكرة بيت من الشعر الشعبي لم أستطع أن أتذكره دفعة واحدة.. «ألا يا نوف قصّي.. ألا يا نوف قصّي لجعودك..» ما معنى جعودك؟ لا بد أن هناك خطأً ما.. «ألا يا نوف قصّي لقعودك.. لحط شعرك بين لحدي والتراب.» نعم.. هذا هو البيت، تلك ملحمة مشهورة. كنت أحفظ الكثير من أبياتها، ولكني لا أتذكر الآن إلا شطراً هنا وشطراً هناك. ولم يحضرني بطل الملحمة، وبدأت أحاول تذكره.. والاسم يعاندني. كان علي أن أجري عدة ترابطات جغرافية وتاريخية، حتى يبرق في ذهني اسم محمد الملحم. ولكن بعد لحظات من تذكره، عدت فنسيته. ثم لجأت إلى الآلية السالفة، حتى نجحت في استحضاره ثانية. وتمتمت مكرراً مطلع القصيدة الملحمة..

«يقول محمد الملحم قصيداً بيوت مسطّرة وسط الكتاب».. ثم يأخذ في سرد حياته ومغامراته الحافلة بالتناقضات. لقد بلغ أوج العظمة حين كان يسير إلى الغزو، وعلى يمينه مية ألف وعن شماله مية ألف، وبلغ الدرك الأسفل من الانحطاط، عندما فاض كفره وجحوده. والمثير في هذه الملحمة، أن الراوي فيها هو محمد الملحم بعد أن مات، ولم يبقَ منه إلا جمجمة عظمية جافة. وتحكي الجمجمة، أن محمد الملحم بعد موته أُخذ إلى جهنم، لكن بسبب كرمه ونخوته، وما قدمه للفقراء والمحتاجين من نجدة وعون، رفضت أن تُدخله في نارها. فاقتيد إلى الجنة، ولكن بسبب كفره، وعمى بصيرته عن الدين الحق، رفضت أن تقبله في نعيمها. وهكذا صار محمد الملحم بعد موته مشكلة محيّرة للنظام الإلهي. في فترة ما وضعت مخططات كثيرة لكتابة مسرحية

مستلهمة من هذه الملحمة وعنوانها «الجمجمة».

كان أكثر ما يهمني، هو ارتباك النظام الإلهي أمام حالة يتساوى فيها خير الإنسان وشره. وتصورت أن يُعاد بعث هذا الإنسان في تجربة أخرى إلى الحياة الدنيا. ويعود بالفعل، فيولد في ظرف ومكان مختلفين، ويعيش الحياة التي تقدّر له، ثم يُقبض، ويمضي إلى الآخرة، وحين يُجرى الحساب، يتعادل فيه من جديد الخير والشر. ويكرر الله التجربة تسعاً وتسعين مرة متوالية، وتتكرر النتيجة نفسها تسعاً وتسعين مرة. غضب الله وقال: «هذا الإنسان ولد في المعصية والندم، ويعيش في المعصية والندم، وحياته بأهوائها وأعمالها وتناقضاتها أعقد من النظام الجنائي الذي صوَّرناه له. امسحوا فكرة الجنة، وامسحوا فكرة جهنم، ودعوهم يعيشوا ويموتوا، ولا شيء آخر..» لا.. كان الله سيقول كلاماً أفضل. لكن هذا الشخير يوتر أعصابي، ويشوش ذهني. شيء جميل أن يكون هناك مسرح فارغ وواسع، وأن يكون هناك قبر صغير من الخشب، يمكن أن يتحول إلى مقعد أو حصان أو كمان. وفي ضوء نصف معتم ينقلب القبر، وتخرج جمجمة صغيرة. إن رأسي تلتهب، ولا أدري إن كنت أهذي أم لا! جاءت فايزة. أخبرتني أن أختي وأخي وصهري قد وصلوا، وجاءوا إلى المستشفى، وأنها شرحت لهم حالتي، وحاولت أن تطمئنهم. وقد ذهبوا الآن إلى البيت كي يستريحوا قليلاً. وكانت مصممة على أن تسهر بجانبي حتى الصباح. لكني رفضت، وأجبرتها على العودة إلى الغرفة، كي تنال قسطاً من النوم. أرعبني أن تمرض، وأنا في حالتي هذه. وتذكرت أني لا أعرف أين تنام ابنتي ديمة هذه الليلة، فتفاقم شعوري بالوحشة. وأيقنت أن الحياة تدخل مجهولاً، لا أحد يعلم إلامَ سيفضي. وكان الشخير مستمراً، وكان أبو رياض لا يفتأ يتراءى لي بغضون وجهه وعبوسه، بينما أسأله دون غضب..

- ولكن ماذا تريد مني يا أبا رياض؟

لست مخطئاً.. لمحت الطبيب والممرضة يتبادلان ابتسامة ذات مغزى، وهما يعريانني، كي يضعا لي القسطرة. ما يزال العري هتكاً وفضيحة مرعبة، وما

يزال بيننا وبين الصحة الجسدية والحرية، ثياب معقدة، وطبقات من القيم المتحجرة، وحِكَم الموتى، وشرائع الطغاة. في "المهابهاراتا" يستمني الملك على شاطئ النهر، فتتلقى منيه ورقة لوتس طافية على سطح الماء. لا.. سأبدل ذلك..

[كان هناك شاب نحيل توحي هيئته، والخدوش الكثيرة التي تخطط جلده، أنه متشرد لا يستقر في مكان. وقد قاده تجواله إلى ضفاف النهر العظيم. كان نهراً يشبه البحر. من إحدى ضفتيه يستحيل أن يرى المرء ضفته الأخرى. وكانت كل ضفة بستاناً، فيه من كل فاكهة وزينة وخضرة. اغتسل الشاب في ماء النهر العذب والنقي، وشرب حتى ارتوى. ثم أمسك عضواً صغيراً يشبه منحوتة من بلور زهري، وأخذ يداعبه بأصابع رقيقة. وكانت تراقبه من مكمنها في الماء عذراء وافرة التكوين على تناسق واكتمال. ثدياها قبتان، وبطنها مرج من الأزهار، وفخذاها حورتان، وبينهما عانة كدغل من الأعشاب. حين رأت الشاب، أثار عضوه دهشتها وعجبها، فرفعت من الماء ذراعين قويين، طوقته بهما، وجذبته نحوها. وما كاد الشاب المأخوذ يُولج عضوه البلوري فيها، حتى أخذته الرعشة، وقذف منيه غزيراً في جوفها. استمر العناق حتى فكت ذراعيها عنه. فوقف في الماء، ونظر إليها، وكأنه يريد أن يملأ عينيه منها، ثم أدار ظهره، وتناول عن الضفة عصاه، ومضى. ولا ريب أنه سمعها، وهي تسأله، وبطبقات صوتية مختلفة:

ـ من أنت؟

لكنه لم يستدر ولو مرة واحدة، واختفى دون أن ينبس بكلمة. وغضبت العذراء، وراحت تضرب بكفيها سطح الماء وهي تقول:

ـ أنا الأرض. ماذا حدث لي؟ كيف أعطي عفّتي لعابر سبيل، لم أعرف عنه شيئاً!.

لكن غضبها هدأ مع الأيام، وتحوّل إلى حنين غامض، بعد أن بدأ البذار ينتش، وينمو في رحمها. وحين بلغ حملها غايته، وضعت ذكراً جميلاً لم

تعرف ماذا تسميه. ولم تجد ما تناديه به إلا يا بن الأم. وكبر ابن الأم بين النهر والبساتين الوارفة على الضفة. ولما بلغ مبلغ الرجال، بدأ ينظر إلى أمه بعينين شبقتين، ويلاحقها بالمداعبات والملامسات والقبل المغتصبة. وكانت الأم تحاول جاهدة أن تبعده عنها. ولم تكن تستطيع أن تفسر لماذا تبعده عنها، ولم تكن تعرف أي قانون يمنع ذلك. لكنها بحس شبه جسدي وغامض، كان يبدو لها ذلك مخيفاً. ويتماثل لها على الفور، وبشعور من الحنين والعتب، ذلك الرجل النحيل والغامض، الذي زرع في بطنها ابنه، ورحل. وذات يوم كان واضحاً أن ابن الأم مصمم على نيلها، ولو اغتصاباً. ولم تكن الأم، رغم متانة بنيتها، واثقة من السيطرة عليه دون أن يؤذي أحدهما الآخر. ولذا قررت أن تقايض استجابتها بالتخلص منه، وإبعاده عنها. شحذت خيالها، وروت له أشياء كثيرة عن أبيه. وقالت له:

ـ سأدعك تضاجعني. لكن عليك بعد ذلك أن تذهب وتبحث عن أبيك، كي تعترف له، وتطلب مغفرته.

سأل ابن الأم :

ـ وماذا يحدث إن لمْ أبحث عنه، وأطلب مغفرته؟

قالت الأم:

ـ سيعود كالريح، تسبقه زمجرة تشبه زمجرة الوحوش الغاضبة. وحينئذ لا أدري ماذا سيحل بك!

سأل ابن الأم:

ـ أهو قوي وغضوب إلى هذا الحد؟

فأجابت الأم:

ـ بل وأكثر مما وصفت. والآن هيا.. هل وافقت؟

فقال ابن الأم متردداً:

ـ وأين سأجده؟

فردّت المرأة قائلة:

ـ لقد اتخذ طريقه صوب مشرق الشمس، وإن اتبعت الاتجاه وجدته.

تردَّد ابن الأم، وكادت شهوته تخمد في عروقه. لكنه حين راح يتأمل قبتي الصدر، ومرج البطن، وتلك العانة الغامضة الشبيهة بدوارات النهر، أحس أنه يدوخ، وقال لها:

ـ قبلت.

واطأها بعنف وشبق وخوف. كان ذلك شيئاً لم يعرفه ابن الأم، ولم تعرفه الأم أيضاً. وحين فاضت شهوته في رحمها، كان كلاهما يشهق، ويواري وجهه عن الآخر. بعد قليل.. نهض ابن الأم وهو يلهث، ثم أدار ظهره، وتناول عن الضفة عوداً غليظاً كالعصا لوح به في الهواء. غاب دون أن يلتفت ولو لمرة واحدة، ودون أن يجيب أمه، التي كانت توصيه أن يعتني بنفسه، وأن يتجنب المخاطر، بكلمة أو بإشارة.]

«يا يوبا.. يا يوبا..» أنَّت العجوز التي تشغل الغرفة المجاورة، ثم بدأت تنادي ابنها:

ـ أَريد ابني.. أَريد ابني..

جاءت الممرضة، وبدأت تسألها:

ـ ماذا تريدين يا خالة؟

ـ أَريد تفكّوني.

أجابت الممرضة:

ـ هذه أوامر الطبيب يا خالة، ولا نستطيع أن نخالفها.

ـ أين الطبيب؟ هاتوا الطبيب..

فقالت الممرضة:

ـ الآن لا يوجد طبيب.

قالت العجوز:

- هذا عجيب.. فكّوني.. أَريد أَرتاح.

فقالت لها الممرضة نافدة الصبر:

- حاولي أن تنامي.. وفي الصباح سيأتي الطبيب، ويعمل لك ما تريدين.

تركتها الممرضة، وخرجت. فنادت العجوز غاضبة:

- يا غندورة.. إيه.. أنتِ يا غندورة..

ولما لم يجبها أحد، عادت تئن بصوت كئيب:

- يا يوبا.. يا يوبا..

وكان الشخير قد هدأ، ولا أدري متى! وحين بدأت أحس الهدوء مثل غلالة سحرية تلفّني، وتهدئ توتري، انفجر في القسم، وبصورة مفاجئة، بكاء طفل جاء يحمله والده، وقد وضعوه في الغرفة المجاورة لغرفتي من الناحية الثانية. علمت أن الطفل ابتلع أدوية القلب، التي يستعملها أبوه، فأصابته آلام وتوترات عصبية، اقتضت أن ينقل إلى قسم العناية. أين توقفت؟ سأعود إلى الأم الأرض..

[كان حملها هذه المرة غريباً ومختلفاً عن المرة الأولى. فقد كانت هناك متاعب لم تشعر بها في المرة الأولى. وكانت هذه المتاعب تتخللها، وتتشابك معها مشاعر عنيفة من الحنين والرعب والرغبة. وظلت طوال تسعة أشهر تكابد، وتتخمر بتلك الانفعالات القوية، التي تهزها في ليلها ونهارها. وحين حانت ولادتها، عانت آلاماً مبرحة، وأحست مراراً أن الموت يطوقها. ولكن.. فجأة.. شعرت أنها تنفتح مثل ينبوع، وتلقفت طفلة أنثى بدأت تواْوىء. وما أن بدأت تمسح الدم العالق بها، حتى أحست أن هناك كائناً آخر يخرج من رحمها. مدّت يدها، وتلقفت طفلاً ذكراً. وحين كانت تحمل الطفلين بيديها، غمرتها بهجة عارمة، وأدركت وسط البهجة، أن دورتها قد انتهت، وأن الوقت قد حان كي ينقسم الزمن إلى سنوات، والسنة إلى فصول، والفصول

إلى مناخات، وأن تجري الحياة كمياه هذا النهر، متغيرة ومتجددة عبر الشهور والفصول والسنوات. وبفعل إلهام غريب لم تعرف أبداً مصدره، وجدت نفسها، ودون عناء، تنادي الطفلة حواء، وتنادي الطفل آدم. وظلت مع ولديها حتى كبرا. ووصل كل منهما سن البلوغ.]

صرخ الطفل في الغرفة المجاورة صرخة أجفلت لها، وانتبهت إلى أن الشخير بصواعده ونوازله، عاد يغمر القسم. وما شأني أنا بالخلق! وما هذه الليلة الهاذية المنهكة! لو أستطيع أن أنام ولو دقائق معدودات! إن أسطورة الخلق في الأديان، وفي «المهابهاراتا» أيضاً، أكثر أناقة وترابطاً. أما أسطورتي فإنها لا تعكس إلا خيالاً محموماً ومريضاً..

[لقد بقيت الأم مع ابنيها حتى صار كل منهما بالغاً. فاختارت إحدى الليالي المقمرة. جلست، وجعلت كلاً منهما ينام على واحد من فخذيها. روت لهما حكاية أبيهما وجدهما، وأوصتهما أن يعتني أحدهما بالآخر، وألا يفترقا أبداً. وإذا ناداهما ذات يوم فضول أو حنين إلى الأب، فليبحثا عنه باعتدال، ودون أن يفرّطا بالحياة ومباهجها. في تلك الليلة، وبعد أن أغفى الولدان سوّت ضجعتهما، وغابت. في البداية تركت نفسها يحملها النهر، ويجري بها. وحين وصلت إلى منطقة يغطيها الطمي، غاصت في الطين الرخو والخصب، وتبددت فيه. ثم بدأت تحولاتها اللانهائية بين أشكال الحياة المتنوعة والوفيرة. أما آدم وحواء فلم يندهشا كثيراً حين استيقظا، ولم يجدا أمهما. ودون أن يشعرا كانت الوحدة قد قربت بينهما كثيراً، فزادت لهفة كل منهما للآخر. وحين نزلا إلى النهر كي يغتسلا، نظر إليها، ونظرت إليه، ثم غضّ كل منهما طرفه، وهو يقترب من الآخر. تعاقبت سنوات خصب عجيبة. وأنجب آدم وحواء سلالة من الأولاد. لقد تعلم كل منها ومبكراً حكاية جده، وجد جده. وظل البحث عن الأب أو أب الأب هاجساً يلاحق

نسل آدم وحواء حتى يومنا هذا. أما الأم فقد كان الجميع يعرف، وبيقين كالحدس أو كالإلهام، أنها موجودة في كل شيء، من النهر إلى الخصوبة إلى الشجر إلى المطر... وإلى كل ما يمكن تعداده من تحولات وأشكال الحياة.]

رأيت الفجر ينسكب علي من فوق جدار جحري الخشبي، وكان الطفل ما يزال يبكي بكاءً مقطعاً ورتيباً، كالذي يسبق النوم، والعجوز تئن «يا يوبا..»، وبدأ بطني يؤلمني. جاءتني الحاجة مفاجئة، ولا أدري متى تأتي فايزة. ما أتفه بني آدم! بين ليلة وضحاها تحولت رمّة وجيفة. وكان عليّ أن أتضاغط حتى تأتي فايزة. لا أريد أن أنادي الممرضة. لا أستطيع أن أتحمل شفقتها، أو تقززها. إني أضمحل بصورة تافهة ومزرية. تناءى الآن المزاج التهكمي، وحلت سوداوية بائسة ومظلمة. وكان نور الفجر يتساقط من فوق الجدار المفتوح كزوبعة التراب والرمال التي يحملها العجاج. كان نوراً أغبر وخانقاً. ولأن النهار نفسه لم يكن له أي معنى، فإن الفجر أيضاً لم يكن له أي مغزى، إلا المزيد من التعب والضوضاء. أكاد أنفجر، ولا أتماسك إلا بشق النفس. لماذا لا أستسلم! لقد استبيح جسدي، ولم يعد هناك ما أبقيه طيّ حميميتي الخاصة. إني من عائلة يمحوها الخجل، ويروعها العيب. ولقد مرت سنوات طويلة، كنت أعتقد خلالها، أن أمي ليست لها حاجات تقضيها. إذ أني لم أرها مرة واحدة تنتحي بقعة الخلاء، التي خصّصناها لقضاء الحاجات. وفي هذا الفجر الرملي، بدت لي حياة عائلتنا هشّة ومثقلة بالتعاسة. فوراء الادعاءات والتباهيات الجوفاء، كان ثمة فقر وخوف ونفاق خجول. كانت العائلة تتزين بجاه سالف، لم يبقَ منه إلا شكليات وذكريات. وكان الجميع يتلظّون بحسية مجهضة يخافونها، ولا يعرفون كيف يتدبرونها، إلا بزواجات مرتبة وكئيبة. ومع ذلك فإن معظمهم لم يكن لديه الحساسية، كي يكتشف في أي وضع زائف حشرنا أنفسنا. وذات يوم خطر لي أن أدوّن تاريخ العائلة. ولقد استطعت أن أجمع وقائع كثيرة، بدت لي لأول وهلة أنها مادة سخية لتدوين مثل هذا التاريخ. ولكن حين محصت هذه الوقائع، وجمعت

المتشابهات فيها، وجدت أن تاريخنا فقير، ولن يستغرق بأي حال ذلك المجلد الذي كنت أطمح إلى كتابته. هل كان تاريخاً أم نبوءة؟ لا أدري..

[منذ ما ينوف عن ربع قرن تراءت لي عائلة تسير في أنفاق متداخلة ومظلمة. أنفاق تشبه المتاهة، أو هي حقاً متاهة. وكانت العائلة، وهي دون ريب عائلتي بالذات، تسير في هذه المتاهة الكالحة، دون أي حس فاجع أو مأساوي. وأذكر أني وضعت تقويماً لهذه المسيرة يبدأ في عام ٢٧ ق.م، وينتهي في عام ٢٦٩٩. كان لدى هذه الأسرة ومنذ ذلك التاريخ المبكر، أمل غامض بأن الشمس تتلألأ في مكان ما خارج السراديب. وكان يكفي أن يتذكروا هذا الأمل، حتى يغذوا السير، ويتحولوا إلى موكب لا يخلو من الجلال، تحفز خطواتهم غاية نبيلة يوشكون على بلوغها. ولكن في معظم الحالات كانت خطواتهم رخوة. وكان موكبهم مشوشاً، وغارقاً في تفاصيل الأيام الرتيبة.]

صرخت العجوز في الغرفة المجاورة:

ـ ما أقدر أتحمل.. أريد ولدي.. أريد الدكتور..

على صرختها استفاق الطفل، وبدأ يبكي. حدث هرج في القسم. كان الطبيب المناوب قد استيقظ، وممرضات الصباح بدأن بالحضور. وفجأة أطلت فايزة، فأغمضت عيني، ووددت لو أذرف دمعة. أشرت لها أن تحضر الزحافة بسرعة. أتت بالزحافة، وأغلقت الباب. كانت جدران الغرفة الخشبية مفتوحة في الأعلى، وكانوا قد أطفأوا المكيفات، وجللني عرق بارد من الأصوات والرائحة. قلت لفايزة:

ـ أليس بيننا اتفاق؟

أجابت:

ـ نعم.. بيننا اتفاق.

قلت:

- أليس هذا أوانه؟

قالت:

- لا.. ما هذه إلا حادثة عابرة.

صحت محتجاً:

- إني أتفسّخ.

قالت:

- روّق.. روّق.. المرض ليس عيباً. ألا تذكر حين تميّع دمي أثناء ولادة ديمة، أو حين أجريت عملية في بطني لاستئصال تلك الكتلة الغريبة؟ ألم أكن أبول بالقسطرة، وأقضي حاجاتي في الفراش؟ من يعتب على المريض، أو يشمت به! إنك مرهق وهذا كل شيء.

نظرت إلى وجهها، ففاجأتني علائم الإرهاق البادية عليها. كان لونها أزرق يتناهى إلى الاصفرار، وكانت عيناها متورمتين. من الواضح أنها لم تنم أكثر من ساعة أو ساعتين. أرعبني أن ننهار جميعاً وفي وقت واحد. سألتها:

- هل شربت قهوتك؟

قالت:

- لا.. جئت فور يقظتي، لأرى إن كنت تحتاج شيئاً.

قلت لها:

- لم أعد أحتاج شيئاً. اذهبي، وتناولي قهوتك، واستريحي قليلاً.

سألت:

- ألم تنم أبداً؟

أجبت:

- لم أشعر بالحاجة إلى النوم.

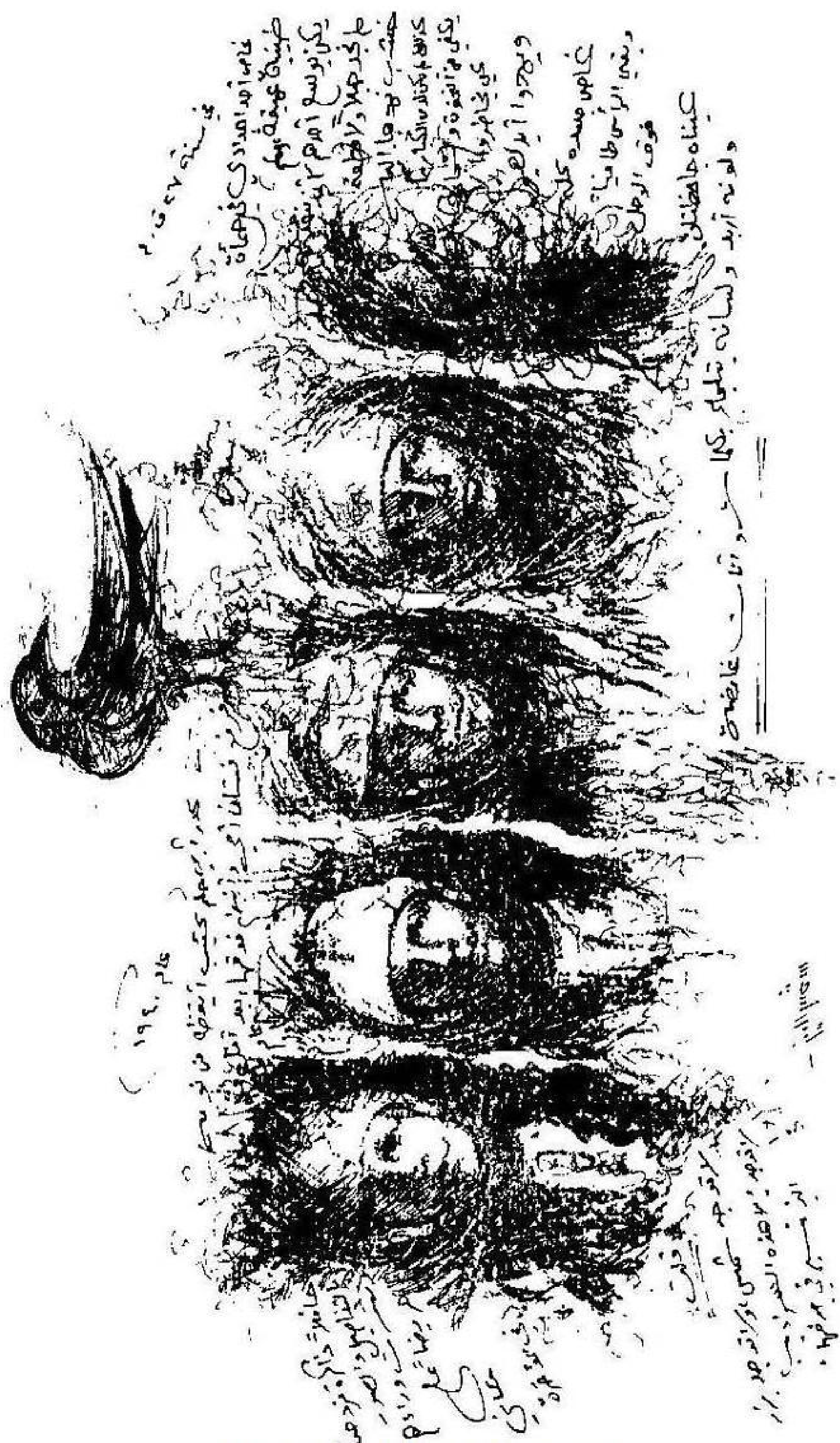
طبعت قبلة على يدي، وغادرت. ولكنها عادت بعد دقائق، ومعها بخّاخ ينشر في الجو عطر البنفسج. أرسلت عدة بخات في جو هذه الغرفة الجحر. وقالت:

- لا توجد في الغرفة رائحة كريهة. نثرت عطر البنفسج كي تطمئن أكثر.

البنفسج.. رائحة البنفسج.. غناء الأوكسجين، وتلك الأجساد القمرية التي تعطّر الحشيش، وتضاعف تأثيره. وفي الفجر.. فجر آخر يختلف عن فجر العجاج، الذي يغنّي برمله وترابه الناعم، تستيقظ العصافير، وتعرض أشجار التين ثمارها الناضجة والملونة. وتدبُّ في الأجساد التي يغطيها العرق، ونسالة الكيف خدر مملوء بالعافية والرغبة والحياة. الشمس التي تتدفق على البراري والحقول. البراري التي تستيقظ وتسترخي في حمام الندى، وكروم التين والخوخ والدراق، والصباح الضاحك.. كل ذلك يتألق وهو يمجد الحياة، ويمجد مع الحياة تلك الأجساد المعافية، التي ترقد الآن مسترخية وعائمة فوق بحر من الأحلام والرغبات..

[كم تمنت عائلتي هذه الشمس وهذا الصباح وتلك الحياة التي يمجدها كل شيء. ولكن ما كنت أراه كان مختلفاً جداً. ففي يوم لم تدركه التقاويم بعد، وجدنا أنفسنا في سرداب طيني، أرضه موحلة، وضوءه شحيح لا يكاد يبدد العتمة. كنا عائلة تتألف من أجداد وأب ونساء وأولاد. لعلي كنت أصغر الأولاد وأقلهم كلاماً. ولم يكن يخطر ببال أحد من أفراد الأسرة، أن وجودنا في هذا السرداب، هو أمر غير طبيعي أو يحتاج إلى تفسير. كانت تسيطر على الجميع فكرة واحدة، لا شك أنها تدلّت وراثياً من الجد الأكبر إلى باقي أفراد العائلة، ولم يشكَّ أحد في صحتها. لا.. لا أظن أنها كانت فكرة، بل مزيجاً من الإرادة والرغبة معاً. فجميعهم كانوا يعتقدون، ولو بدرجات متفاوتة من اليقين، أن السرداب سيقودهم إلى الشمس وبرارٍ خضراء، ازدهارها مسكر، وخضرتها أبدية. وكنا نسير.. كان السرداب يفضي بنا إلى سرداب آخر. ولا

تسعفني ذاكرتي بوضع أي تقويم لهذه الرحلة يسبق المئة الأولى قبل الميلاد. ففي سنة ٢٧ ق.م غاص أحد أجدادي في حمأة طينية عميقة، ولم يكن بوسع أحدهم أن ينقذه. لم نجد حبلاً ولا قطعة خشب نمدُّها إليه. كذلك لم يكن لدى الكبار ما يكفي من النخوة والشجاعة، كي يخاطروا، ويمدّوا أيديهم إليه. غاص جسده كله، وبقي رأسه طافياً فوق الوحل. عيناه جاحظتان، ولونه أربد، ولسانه يتلجلج بكلمات وأناتٍ غامضة. هل سمع الباقون ما سمعت؟. كان واضحاً أنه يتهم أخاه. بل رنَّت في أذني هذه العبارة المتلجلجة.. «قتلني أخي.» لم يهتم أحد بما قال، وانشغل الأجداد الآخرون بإقامة بعض الطقوس. رُمي أمام وجهه المزرق رغيف من الخبز، وقطعة من اللحم المقدد، وبصلة بيضاء، وتميمة خشبية، ثم أشعلوا فتيلاً مبللاً بالزيت، وغرسوه بالأرض. تلت ذلك بعض الدمدمات الدينية، التي كانت تغطي حشرجات الجد الغارق، وتخمدها. انتهت الطقوس وتابعنا السير.. بقيت أتلفت، فأرى الرأس الطافية وظلها المتراقص مع الشعلة المتروكة أمامها. ولولا أن أبي نهرني، وشدَّني من كمي، لما استطعت أن أنتزع عيني من هذه الرؤية. ذلك الحدث وذلك المشهد هما بداية تقويمي، الذي أخذت من الآن فصاعداً أسجل أحداثه الرئيسية. كانت مسيرتنا رتيبة. وكانت السراديب لا تفضي إلا إلى السراديب.، والغريب أنه لم يكن هناك أي شعور بالضياع. وكان تراتبنا في السير يتم بصورة تلقائية، وكأنه قانون كوني.، الجد الأكبر في المقدمة، ثم يتلوه أجداد آخرون، ثم أبي، ثم النساء (وكان كل منهم، بما في ذلك أبي، لديه أكثر من زوجة)، ثم الأطفال. وكنت في المؤخرة.، ومن هذا الموقع كان بوسعي أن أراقب هذه المسيرة، التي تخرج من نفق، لتدخل نفقاً آخر. وقد سجلت ذاكرتي أحداثاً كثيرة، ولكن بعد سنوات عديدة عندما تفحصتها جيداً، اكتشفت أنها عديمة القيمة. في سنة ٣٠ ميلادية توقف جدي الأكبر عن تناول الطعام، وكان يجبر نفسه على التبرز مرات عديدة في اليوم. وحين ظن أنه صار نظيفاً وخالياً من كل خبث، تمدد على الأرض ومات. في اليوم



التالي لوفاته انتحى جدي الأصغر بزوجته، وأسندها على جدار السرداب، وأخذ يهز وسطه. ومثل هذه الانتحاءات كانت تتكرر دائماً، ولم نكن نوليها أي اهتمام. كان علينا أن نسير فقط. وكان كل جد توافيه المنية، يوصينا بأن نتابع السير، ويسرف في وصف ألق الشمس التي تنتظرنا. في سنة ٦٢٠ حدثت في عائلتنا فتنة. فقد اختلف من تبقى من الأجداد حول التمائم، وبالتالي حول الاتجاه. وانقسمنا، وما زلنا ننقسم عند كل مفترق من مفترقات السراديب. حين اضمحل جمعنا، وتفرق الأقرباء، ولم يبقَ إلا عائلتنا الصغيرة، التي يرأسها أبي، كانت الشكوك قد بدأت تنفذ إلى قلوبنا. ومع تزايد الشكوك كان أبي يزداد غطرسة وتسلطاً. منعنا من الكلام، ووضع قفلاً على فرج زوجته الأولى، التي أنجبت له ثمانية ذكور وخمسة إناث. وقال لها:

- تكونين بوراً إلى الأبد. لا يقربك محراث، ولا يرويك ماء.

وفي عام ١٩٤٠ كدَّر أبي حلم كئيب أيقظه من نومه»، فرفع فستان أمي، وانبطح فوقها. بعد أقل من عام ولدتني أمي حاملاً ذاكرة مزدحمة بالصور والتفاصيل. وسرت وراءهم، حريصاً على مكاني دائماً في المؤخرة. بعد عشرين سنة تجرأت، وقلت لأبي:

- لا توجد شمس، ولا توجد برار. لا توجد إلا هذه السراديب التي نسير في جوفها. أما الأمل الذي يحدونا فإنه كاذب، وأما عزائمنا فإن رخاوة موروثة تُثبّطها.

احمرَّ وجه أبي، واتقدت عيناه، وظن الجميع أني هالك. لكن وسط دهشتهم، قال أبي بهدوء آمر ومتسلط:

- الأجداد لا يكذبون. فلنتابع..

وتابعنا.. في ظروف غامضة مات أبي. وفي ظروف غامضة، انتظمت الأسرة مرة أخرى تحت قيادة الأخ الأكبر. في عام ٢٠٠٧ دبَّ خلاف بيني وبين أخي، فتخليت عن العائلة، واتجهت في سرداب مخالف. تزوجت وأنجبت. وهاأنا أقود عائلة جديدة وصغيرة، لكنها ستكبر مع الأيام، وكلما

كبرت سأحار ماذا أقول لها. ما الذي سيجعلها تتبعني في سيري، إذا لم أعدها بالشمس والبراري!. وهكذا وجدت نفسي أواري شكوكي، وأزرع في صدور أولادي يقيناً بأن الشمس تنتظرنا في نهاية السرداب. وتابعنا السير.. صارت السراديب إسمنتية، وفي زواياها تتدلى مصابيح تخفف العتمة، لكن السراديب ظلت سراديب، وما زلنا نسير بحثاً عن شمس، لم يتأكد أحد قط من وجودها. في عام ٢١١٤ ما زلنا نسير.. في عام ٢٣٧٠ ما زلنا نسير.. في عام ٢٦١٧ ما زلنا نسير.. في عام ٢٦٩٠ ما زلنا نسير.. في عام ٢٦٩٩ خانتني قدماي وما زلنا نسير.. وسيوالي أبنائي السير وكتابة هذا التاريخ..]

كان بين ممرضات الصباح ممرضة شابة تضجُّ نشاطاً وحيوية. كانت تحمل إبريقاً وطشتاً صغيراً، وتدور على الغرف. رؤية الإبريق أثارت فيَّ رغبة شديدة للماء البارد. أريد أن أشرب، وأن أسكب الماء على رأسي وجسدي. وفي الوقت نفسه اكتشفت أني لا أستطيع أن أضع في فمي، ولو جرعة ماء صغيرة. كان ارتشاف أي سائل، وبلعه مؤلماً ومتعذراً. وكانت قد مرت أيام لم أتناول فيها أي طعام. جاءت الممرضة إلى غرفتي، ومعها أخرى تعاونها. غسلتا لي يدي ووجهي، فشعرت بشيء من الانتعاش. ثم حملت ممرضة أخرى صينية عليها طعام الإفطار. نظرت إلى الصينية، فداهمني غثيان حاد. كان مريض القلب قد استيقظ، وبدا أنه زبون دائم في العناية المشددة. حيَّى الممرضات، وأخذ يمازحهن طالباً مضاعفة طعام الإفطار. بدأ الأطباء يتوافدون. جاء طبيب الهضمية، وسأل عن مرات البراز وطبيعته، وجسَّ البطن بيدٍ عجلى، ثم مضى. تلاه طبيب الكليتين، فسأل عن كمية البول، وتفحص الكيس المتدلي من القسطرة، ثم قاس الضغط، ومضى. ثم أتى رئيس قسم العناية، فسألني عن حالي، ودون أن ينتظر الجواب، قاس الضغط، وأصدر بعض التعليمات للطبيب المناوب، وخرج. جاءت فايزة، واستفسرت فسألتني عما قاله الأطباء. أجبتها:

- لم يقولوا شيئاً.

قالت:

- ألم تسألهم؟.

قلت لها:

- لا.. إني متعب، ولا أدري عما أسألهم.

خرجت إلى الردهة، وبدأت تمطر الطبيب المناوب بالاستفسارات. وفيما هي مشغولة معهم، دخل رجل ينطبق عليه تماماً الوصف العامي، الذي يقول..: «وجه يفسو.» رأيته مراراً من قبل. فهو يعمل في عيادة الدكتور زياد عبد الهادي، وفي مختبر «الشامي». وخلال المرات التي صادفته فيها، كان وجهه دائم الاشمئناط. يُدلّي زاوية فمه اليسرى، ويرفع زاويته اليمنى في تعبير متقزز وساخط. جاء يأخذ عينة من دمي للتحليل. ربط ذراعي بالمطاطة، وأطبقت قبضتي، وراح يبحث عن وريد يغرس إبرته فيه. وكنت أنظر إليه نظرة نفاذة، ولا تخلو من ازدراء. لا أدري إن كانت نظرتي هي السبب، لكنه نادى زميلة له، وقال لها بغضب:

- إني لا أجد وريداً صالحاً لسحب عينة من الدم.

فقالت:

- هات المطاطة!

ربطت الذراع الثانية، واختارت وريداً مستهلكاً، وغرزت إبرتها فيه. آلمتني جداً. وبصعوبة استطاعت أن تسحب عينة الدم المطلوبة. وضعت قطعة قطن صغيرة على الوريد. وقالت بجفاف:

- اطوِ ذراعك!

ثم التفتت إلى الرجل الذي يفسو وجهه، وقالت بتباهٍ:

- مشي الحال.

قالت فايزة:

- سألت الطبيب المسؤول عن القسم عن إمكانية تناول «الأتيفان»، وقد

سمح لك بتناول حبة عيار ملغرام واحد.

أجبتها:

- لا يهم. لم أعد أرغب في تناول الأتيفان.

قالت:

- سأذهب إلى البيت لكي أحضر الأغراض، التي نحتاجها في المستشفى، وبعض الفاكهة والطعام.

سألتها عن أخي وأختي وصهري. فقالت:

- إنهم هنا. وسيذهبون معي إلى البيت كي يأتوا بحقائبهم، ويسافروا. لكن أختك ستبقى.

قلت لها:

- دعيني أراهم قبل أن يسافروا.

هذا الصباح زارني عدد كبير من الأصدقاء. ولم نكن نتبادل إلا النظرات المثقلة بالحزن والحيرة. جاء حسن. م. يوسف، ووقف عند أسفل السرير. كان وجهه جنائزياً. من فوق الغطاء ضغط بإبهامه وسبابته على قدمي وكأنه يبلغني رسالة. بدا كل شيء سيئاً ومربكاً كالفراق. ازدادت تعبيرات وجهه جنائزية، فأومأ برأسه، ومضى.

حين وقف أخي على عتبة الباب، ورفع يده، نظرت إليه بلهفة وأنا أردُّ تحيته. بدت هيئته غريبة بالنسبة لتوقعاتي. كنت خائفاً عليه من سفر الليل وقلة النوم، لكنه بدا نضراً يعتمر قبعة من القش، وقد شذَّب شاربه بحيث غدا نحيلاً يمتد كخط رمادي تحت الأنف. وهذا التغيير مع نضارة وجهه، جعلته يبدو رجلاً لاهياً، لا يشغله إلا إغواء النساء. بدا خفيفاً وعصرياً. وحين رفع يده مودعاً، ثم مضى، رماني في دوامة من الحيرة والارتباك. بعده جاء أبو نضال وابنه علاء. كان منظر «أبو نضال» يثير الشفقة بالفعل، فهو يذوب يوماً بعد يوم. كان يبدو هزيلاً في ثيابه الفضفاضة، وعلى وجهه حزن وهم. كنت أعلم أنه نحل في السنوات الأخيرة، وفقد الكثير من وزنه وسمنته، لكن هذه

أول مرة أشعر فيها، أنه يتزحلق نحو الموت. وهو لايشكو أية علة جسدية يمكن أن يعزى إليها هذا النحول، لكن يبدو أنه قرر منذ سنوات، ألا يفعل في حاضره أو في مستقبله شيئاً إلا التأهب للموت. ولم يعد يعرف لحظة بهيجة، إلا تلك التي ينبش فيها بعض ذكريات الماضي البعيد. كان في عينيه نظرة حزن أبكم. حاولت أن أبتسم، لكنه هزَّ رأسه، ولوَّح بيده، ثم مضى ومعه علاء. بدا لي صورة نقيضة لأخي. كان واحد يتأهب لاستئناف حياة جديدة، وكان الآخر يتأهب لوداع الحياة. تَرَكَت هذه الزيارة في نفسي أثلاماً من الحزن والتطير. وتذكرت يوم جاء أخي محمد بعد قطيعة طويلة، إلى مستشفى «الشامي» في أول جرعة أتناولها بعد عودتي من فرنسا.، تصرف ببساطة وحنان، وردم سنوات القطيعة بصدق ومهارة. بعدها لم تنقطع زياراته ولا تلفوناته. في واحد من هذه التلفونات، كان يخبرني أن فؤاده مطمئن، وأن القلق لا يساوره حول مصيري. ولكي يعزز هذه الطمأنينة قال لي:

- هناك حادثة في حياتي أظن أني رويتها لك في وقتها. مرَّت فترة رغبت فيها أن أغيّر ديني، وأن أتحول إلى المسيحية. وذات ليلة جاءني هو. نظر إليَّ نظرة لائمة، وقال لي.. لا تفعل. فاستيقظت مذعوراً، ومحوت الفكرة من رأسي. والآن أقول لك.. البارحة جاءني في المنام هو.. هو.. كما رأيته في ذلك الحلم القديم، نظر إليَّ وقال: لا تقلق على أخيك.. سيشفى، وسينهي مشروعه حتى النهاية.

وأضاف أخي، أنه بعد هذا المنام تطامن قلقه، وشعر أن برداً وسلاماً نزل على قلبه، وراح يشرح لي أهمية هذا الحلم، ويطلب مني أن أشاطره تفاؤله. فأكدت له أني أقدر أهمية الحلم، وأني أشاطره تفاؤله. منذ بداية مرضي والأحلام التي تتنبأ لي بالشفاء وحسن المصير، تتواتر بكثرة مدهشة في ليالي الأهل والأصدقاء. إن أحلام فايزة وحدها يمكن أن تملأ دفتراً كاملاً. جاء الدكتور زياد عبد الهادي. قرأ المعلومات المسجلة في الطبلة، ثم دخل عليّ. كان شديد الحرص والاهتمام. لاريب أنه يدرك الآن، أنه مسؤول ولو جزئياً، عما أعانيه. أثناء الجرعة الأخيرة التي سببت هذا الانهيار، سألته بوقاحة:

ـ هل أنت معي أم مع الورم؟ إني مرهق جداً، وكان يجب أن أؤجل هذه الجرعة.

فاعتبر سؤالي مزاحاً. وقال:

ـ لا.. إن تحليل الدم جيد، وستكون هذه الجرعة كسواها.

الآن لا بد أنه يدرك خطأه. وستكون مفارقة مضحكة أن يقتلني، كما قلت له مرة، العلاج لا السرطان!.

عندما رفض أن يحدّد لي متى سأغادر قسم العناية المشددة، وعندما ردَّ على استفساراتي بغمغمات غامضة، علمت أن وضعي سيء، وأن عذابات طويلة تنتظرني. لم يخطر لي أن ألحَّ على فايزة كي تخبرني بحالتي. ولم أوجّه أي سؤال لأي من الأطباء، الذين كانوا يعودونني مرتين في اليوم. ورغم أن السرير والجحر والقسم كله كانوا جحيماً، فقد قررت أن أستسلم. جاءت فايزة حاملة عصيراً أو شيئاً يؤكل، فرفضت باشمئزاز. لا أستطيع البلع، ومعدتي لا تتحمل حتى الماء. ولم يكن هناك ما يحكى. ومع تقدم الوقت ازدادت ضجة العجوز، التي علمت أنها مصابة بسرطان في فمها وعنقها،، وثرثرة مريض القلب مع زواره الكثيرين.، وبدأ يستولي علي خوف ووحشة، وشعرت أني مثل أيوب.. وتباهي الرب بعبده أيوب. باستقامته وتقاه.، فسأله الشيطان.. أمجّاناً يتقي الله؟ فأطلق الله يد الشيطان، كي يضربه في أهله وأملاكه. ففقَد أولاده العشرة وكل ما يملك، فلم يخطىء بحق الله. فازداد الله تباهياً بعبده أيوب. فطلب الشيطان أن يصيبه بلحمه ودمه، فأطلق الرب يده. فأصاب الشيطان أيوب بقرح من أخمص القدم إلى قمة الرأس، فاشتدت آلامه، وصار الرماد مرقده، وأنكرته زوجته، وانفض عنه غلمانه وعبيده. لم يكن أيوب يعرف أنه ضحية رهان متبجح بين الله والشيطان. ولأنه كان عميق الإيمان وحسن النية، لم يخطر بباله أبداً أنه يمكن أن تجري في السماء التي يشعشع فيها الرب، ألعاب ومراهنات دامية إلى هذا الحد!. ولهذا دفعه قلبه البريء، وآلامه التي لا تحتمل إلى محاججة الله: «لكني إنما أخاطب القدير وأودُّ أن أحاجَّ الله. ما الذي لي من الآثام والخطايا. أعلمني معصيتي

وخطيئتي. لمَ تواري وجهك وتَعْتَدُّني عدواً لك. إنما تروِّع ورقة منثورة وتَرهَق عُصافة يابسة. فإنك تكتب علي معاملات عنيفة وتلحق بي آثام صباي وتجعل رجلي في مَقْطَرة وتراقب جميع مسالكي وتخط حول باطن قدمي. وهذا الرجل قد نَخَرَ كزُفاتِ متسوِّس وكثوب قد أكله العث.»

«قد اكتسى لحمي دوداً وحمأ تراب وجلدي تقلص وتمزق. ما الإنسان حتى تستعظمه وتميل إليه قلبك. وتتعاهده كل صباح، وتبتليه كل لحظة. إلى متى لا تصرف طرفك عني، ولا تمهلني ريثما أبلع ريقي. أقول لله لا تؤثمني. أعلمني على أي شيء تحاكمني. (...) لكني إنما أخاطب القدير وأودُّ أن أحاجَّ الله.»

ولا شك أنه كان عزاءً كبيراً لأيوب، الذي يتفسخ، أن يحاجج الله، وأن يلومه من طرف خفي، لأن النعيم في هذه الدنيا مقسوم للمنافقين والأشرار، في حين تضرب يد الله الأبرار، وتبتليهم بأقسى أنواع المصائب. والغريب أن الله الذي كان يعرف أن أيوب لا يستحق أياً من المصائب، التي توالت عليه. وأن كل ما أحاق به كان نتيجة رهان متبجح بينه وبين الشيطان.، فقد أغضبه أن يحاججه إنسان، حتى ولو كان صادق الطاعة والإيمان. ولهذا كلّم أيوب من العاصفة، وقال: «اشدد حقويك وكن رجلاً.» ثم بدأ يعدد متباهياً ما خلق من أرض وسماوات ونجوم وجبال ووديان وحيوانات وطيور وبحار ورياح. ثم يختم كلامه الذي يوجهه إلى أيوب من العاصفة، ويقول: «اشدد حقويك وكن رجلاً. إني سائلك فأخبرني ألعلك تنقض قضائي. أتؤثمني لتبرر نفسك. ألك مثل ذراع الله. أترعد بمثل صوتي. إذن فتزيّنْ بالعظمة والسمو، والبس المجد والبهاء.» ويواصل الله تأنيبه حتى يتضاءل أيوب. ويتلاشى صوته منكراً مقالته، ونادماً على محاججته. ويعوض الله أيوب أضعاف ما خسره من صحة وولد ورزق. ولكن بعد أن عطّل عقله، واعتذر عن المحاججة، وتحول كائناً صغيراً، يضع برضىً وتسليم حياته ومصيره، وكل ما يصيبه بيد القادر الذي خلقه، ولم يترك له إلا حرية العبادة والطاعة والرضا، مهما اشتدت عليه ألوان

الظلم والعذاب. لكن من جهة ثانية بدا لي أنه قد يكون أمراً لا يخلو من العزاء، أن يؤمن المرء أن مصيره تخططه وتنظمه قوة إلهية تتحلّى بكل صفات القدرة والسمو والجلال. فهو في هذه الحالة يستطيع أن يعزو كل ما ينتابه إلى حكمة علوية تفوق مداركه. كذلك يستطيع أن يتضرع، وأن يتوقع مع مزيد من التقوى والزلفى انقلاباً في الحظ، وتحولاً في المصير. وهو في كل الحالات يتصرف كما يتصرف الطفل مع أمه وأبيه. فكرت في حالتي، وددت أن أجد من أحاججه. لا يوجد للأسف إلا رجال صغار مثلي، وبعض الذين يحيطون بي. وهؤلاء ماذا ينفعني أن أحاججهم حول حالتي!. وعلى كل، إذا نظرنا إلى وضع البشرية نظرة أشمل، فإننا نكتشف أن ما يتصف به عالمنا من تفاوت وغبن ومظالم، يدل على غياب الله أكثر مما يدل على وجوده. وهذا الفساد الذي يطبع العالم، لا تنفع معه محاججة الله، بل ينبغي أن نحاجج أنفسنا والعالم. أو أن ندرب في داخلنا روحاً ساخرة ولاذعة، نواجه بها الغبن والفساد.

في مقدمة طبعة البلياد لأعمال «غوته» المسرحية الكاملة، كتب أندريه جيد تقديماً لهذه الطبعة. وفي إحدى فقرات هذا التقديم، الذي قرأته منذ سنتين، بدا أندريه جيد، وكأنه يحسد، وبنوع من المرارة الخفية، «غوته» على حظه الاستثنائي. يقول:

«نعم.. لقد انتصر غوته على نفسه وعلى كل شيء. ولكن لا نستطيع إلا أن نتساءل، إذا لم تكن هذه الانتصارات تتصف أحياناً بالسهولة، ثم إننا نتذكر ما كان نيتشه قد كتبه حول انتصارات أخرى. تلك الانتصارات التي يخشى أن تقلل أو تحطّ من شأن المنتصر. وإننا مجبرون على الاعتراف بأن شيطان غوته في نعيم النجاح قد تبرجز قليلاً. فطوال حياته كان مغموراً بشتى أنواع النجاحات، والأمجاد، وكان غنياً كما يتمنى، ومحاطاً بالمحبين والمعجبين. ولقد عاش دون ضعف أو مرض عمراً مديداً. ومات دون احتضار شبعاناً من كل شيء. فكيف يجرؤ إذن على الحديث عن الزهد.»

بدا لي حسد أندريه جيد عادلاً ومضحكاً في الوقت نفسه. ولولا شدة

شعوري بالخوف والوحشة، لاستعدت قليلاً تلك الروح التهكمية، التي صاحبتني ذات ليلة بعيدة.

مراراً تناهت إلى سمعي أحاديث تدور حولي، ولا سيما من غرفة المريض بالقلب وزواره. ورغم أن هذه الأحاديث كانت تتناهى إلي جملاً مقطّعة، فقد كان يخيل لي أني أسمعها كاملة ومترابطة. وكان اسمي يتردد كثيراً. ورغم أن بعض الجمل كانت تصلني محمَّلة بالاحترام، إلا أني كنت أشعر، أني أزداد عرياً، وأن حميميتي صارت مِزقاً. العجوز التي إلى جواري لم تكفّ عن الأنين والصياح، متوسلة أن يعيدوها إلى بيتها، كي تموت هناك. ثم جاء ابنها والطبيب. حاولا تهدئتها، ومازحها الطبيب مقسماً إنها لن تموت، وإنه غداً سينظف لها القسم الثاني من فمها، ويملأ بطنها إفطاراً دسماً، ويرسلها إلى بيتها. وكان أكثر ما يضايقها هو السيروم المعلق بيدها. وتوسلت للطبيب أن ينزعه. فأخذ الطبيب يترضّاها، وذهب دون أن يوافق على نزع السيروم من يدها.

وصلت نتائج تحليل الدم، وكانت فايزة تنتظر عند طاولة الطبيب المناوب. والتقطت أذناي أن عدد الكريات البيض لا يتجاوز الثمانمائة، وأن التهاب الكبد لم يخف إلا قليلاً. وحين دخلت فايزة لم أسألها عن تحليل الدم. قالت لي:

- هل أحضر لك حبة أتيفان.

فرفضت. جلست قربي تقرأ في كتاب «السيرة الذاتية لبناظير بوتو». أغمضت عينيّ، وحاولت أن أتغلب على مشاعر الوحشة والخوف التي تسيطر عليّ. فكرت في الأعمال الكاملة، وبدا لي أن إمكانية صدورها قبل معرض الكتاب غدت متعذرة. وعلى كل ما زال الجزء النظري في قسمه الأخير يحتاج إلى عمل كثير. ومن أعماق ذاكرتي طفت فكرة قديمة ومنسية. ففي الفترة التي كتبت فيها قصة «الذبابة الجائعة» كان يدور في ذهني أن أضع كراساً عنوانه «ذبابيات». وقد بدا لي الآن جميلاً وفكهاً أن تكون الذبابيات هي أحد فصول الكتاب الثالث من الأعمال النظرية.

[وبدأت أرتب محتويات الفصل.. ستكون قصة «الذبابة الجائعة» هي الفقرة الافتتاحية..

* كان الوقت ظهراً.. وألوان الغرفة النظيفة تلتمع رغم انسدال الستائر ببريق هادئ، يعطي إحساساً ممتعاً بالنظافة.

ولم يكن ذلك هو إحساس الذبابة الصغيرة، التي تتقافز على طلاء السقف الأشهب، بانزعاج وضيق ـ لقد ولدت منذ يوم واحد فقط، ولم تتعلم بعد أي شيء عن تلك المرئيات الغامضة، التي تزحم عينيها ـ كانت وحيدة، وكانت جائعة، وشيء مبهم يحرك في صميمها حزناً يمتزج بالدهشة الحائرة. وطنّت، كما لو أنها تستغيث، ثم راحت تهوم، فيما أحاسيسها المكتئبة تنمو وتشتد. كانت الغرفة واسعة كالعالم.. وما من ذبابة أخرى تلوح على المدى البعيد. ولحظتها كان بوسعها أن تهتف ملء جوارحها صادقة:

«ـ إني جائعة وحزينة.»

ولكن حتى لو صرخت فمن الذي كان سيسمعها! حطّت على منتصف الجدار المقابل لباب شافّ يلتحم بإطاره، ثم شرعت تنزلق بحركة مضطربة، يفضحها تبعثر عينيها الصغيرتين اللامعتين. ـ لقد وُلدت منذ يوم واحد. وكان مشروعاً أن تُزوَّد ببعض الإيضاحات الأولية عن العالم الذي ستحيا فيه. ولكن أحداً لم يفعل. ـ قادتها أرجلها المتقافزة إلى حافة مكان واسع وطويل. حينئذ أبصرت كتلة حمراء ذات إطار أسود، ونفذت إلى خطمها رائحة حسية مبهمة، فاندفعت على الفور كأن صوتاً حبيباً يناديها. خيّمت على سطح دافئ، حيث شملتها هبة من تلك الرائحة أكثف وأشد تركيزاً. ـ لم تكن أمها، التي لم تعد تعرفها الآن، قد علَّمتها شيئاً عن هذه الروائح، وأخطارها. ـ ولذا غرزت خرطومها بذهول في السطح اللين، الذي تخيم عليه. وبينما كانت تتلذذ بطعم دهني سلس، تطوَّح نحوها جسم هائل، فقفزت إلى حافة المكان مرتعدة دون أن تدرك شيئاً البتة. وكان النداء الغامض أقوى منها، فانهمرت ثانية على البقعة نفسها، وأنشبت خرطومها في ليونتها الدسمة.

اندفع الجسم الهائل مرة أخرى، تصحبه أصوات ضخمة راعدة. وبينما كانت تطير وكل أعضائها الصغيرة ترتعش، كان السرير يئن، وجسم ينهض.

لبدت الذبابة الصغيرة، التي ولدت منذ يوم واحد فقط على الحائط القريب من السرير لاهثة ومذهولة. كان كل شيء عجيباً ومدهشاً في الوقت نفسه. وإلى حزنها انضافت رعشة الرعب. وما مرت لحظات حتى فرقع إلى جوارها صوت زاعق، ولمحت كما الحلم العابر شيئاً يصطدم بالحائط. اشتد وجيب قلبها، وازداد لهاثها ، وهي تقف على الجدار الثاني. ولم يكن في ذهنها ما هو واضح، عندما شعرت فجأة أن رأسها ينفجر ويتطاير، وأن سواداً كثيفاً يهبط كالستار.. وسقطت على الأرض، ولم تكن قد عرفت شيئاً.

تأوه السرير ثانية، ثم سكن كل شيء، وما زالت الألوان النظيفة تلتمع ببريق هادئ.

ثم سنتلوها حكاية الذبابة المحبوسة مع الزوجين في قصة «بعد ظهر دمشقي».. وهي تحكي قصة موظف وزوجته يدخلان بعد الغداء، وفي نهار صيفي قائظ إلى غرفة النوم. الرجل والمرأة يميلان إلى البدانة.

* يجلس الرجل على حافة السرير، ويشعل سيجارة. بينما تتربع المرأة فوق السرير، وتبدأ تنتف بالملقاط شعرات متناثرة على ساقيها البيضاوين. يتجشأ الرجل. يقول: «أكلت إلى حد التخمة». بعد صمت قصير، تعقب الزوجة، وكأنها تحدث نفسها: «كل يوم تقول أكلت إلى حد التخمة». يمج الرجل سيجارته، ويقول باندفاع: «خَلص.. غداً سأبدأ رجيماً صارماً». بعد صمت قصير تعقب الزوجة، وكأنها تحدث نفسها: «كل يوم تقول خَلصْ.. غداً سأبدأ رجيماً صارماً». يقول الرجل بضيق: «وأنتِ.. هل تمسكين علي دفتراً بما أقول». بعد صمت قصير، تعقب الزوجة، وكأنها تحدث نفسها: «كل يوم تقول وأنتِ هل تمسكين علي دفتراً بما أقول». ينفخ الرجل مجّة الدخان الأخيرة وكأنه يتنهد. يطفئ السيجارة في المنفضة الكائنة على الكومدينة. يمد


كثيراً ما حسدت الذباب على تلك
متجددة
ومدهشة
كان ينبغي أن أكبر، وأن أعتقل
في الحب مرات عديدة
كي أكتشف أن الإنسان
يفتقر كثيراً إلى الحساسية
والجمال اللذين يتمتع بهما
الذباب

يده. يفتح الراديو. يتدفق صوت نسائي بالدلع والغناء «ما شربش الشاي. أشرب أزوزة أنا». يهتز الهواء الحار في الغرفة، وتحوم ذبابة حُبست معهما. يدير الزر، ويخفض الصوت. يحرك المؤشر مغيّراً المحطة. ينبعث صوت مذيع: «دعا الأمين العام للجامعة العربية». يغير الرجل المؤشر. تنداح في فضاء الغرفة دقات ساعة «بيغ بن». تتطاول الدقات، وكأنها لن تنتهي. يغلق الرجل الراديو بحركة عصبية، ثم يمد يده، ودون أن يلتفت، إلى فخذ امرأته. يتحسّس نعومة الفخذ بحركة آلية وفاترة. تقول الزوجة، وهي تنتف شعرة من ساقها الأخرى: «أجّلها إلى الليل». يجيب الرجل، ودون أن يلتفت: «لا.. في الليل يسرقنا التلفزيون». تضع المرأة الملقاط تحت المخدة. ترفع عجيزتها بحركة آلية، وتخلع سروالها. تتمدد على ظهرها، وتفرج ساقيها. يخلع الرجل بنطلون البيجاما، وسرواله العريض الفردتين. يمسك ثدي امرأته، وينبطح فوقها. تغمغم الزوجة: «ألا تعتقد أننا نكثر». يدمدم الرجل من بين أسنانه: «وماذا نفعل». يعمُّ صمت رخو لا يخدشه إلا أزيز ذبابة وحيدة. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. تغرز الذبابة خرطومها في ظهر الرجل المغطى بالعرق والدهن. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. تطير الذبابة، وتحط على المصباح الكهربائي المتدلي من السقف. تنظر من أعلى. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. تشعر الذبابة بالتقزز والحزن. تطير محومة وباحثة عن مخرج. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. يحشرج بصوت مخنوق أه.. أه.. آه. لا يند عن المرأة أي صوت. ويظل الصمت الرخو مخيماً على الغرفة. ينهض الرجل عن المرأة. يرتدي سرواله وبنطلون بيجامته. يتجه نحو الباب. يخرج من الغرفة. تشعر الذبابة بالفرح، وهي تطير عبر الباب المفتوح. تنقلب المرأة على جنبها الأيسر، وتغمض عينيها. بعد قليل يتناهى من داخل البيت صوت اندفاع الماء، بعد فتح سيفون المرحاض. تعوم الضجة في صمت الغرفة وفراغها، كفقاعة صابونية كبيرة. يعود الرجل إلى الغرفة. يتحول صوت الماء الذي يملأ خزان المرحاض إلى خرير يتخافت. تصغر الفقاعة الصابونية حتى تتلاشى. يتجشأ

الرجل عدة مرات. يتمدد على الطرف الثاني من السرير مديراً ظهره للمرأة. بعد قليل يخدش الصمت، وبشقوق متوازية، شخير منتظم ورتيب.

وفي الفقرة الثالثة ستسألني ماري الياس بعد أن تقرأ «بعد ظهر دمشقي»:

ـ ما هذه العلاقة مع الذباب؟

وسأجيبها:

ـ اسمعي! يمكن أن تتقززي من الذباب، وأن تعتبريه حشرات كريهة، وقادرة على أن تزعج الإنسان في نومه وراحته، بل وأن تؤذيه في صحته. ولكن مهما كان فإن هناك جانباً في حياة الذباب، لا يستطيع المرء حين يراقبه عن كثب إلا أن يعجب به، وأن يفهم بالتالي تقزز الذبابة، التي رأت الرجل يضاجع امرأته، ورغبتها العارمة بالفرار. والجانب الذي أعنيه هو الحب عند الذباب. وسأحاول أن أصف هذا الحب كما حفظته ذاكرة الطفولة. يقترب الذكر من الأنثى بخطىً فيها لهفة، لكنها تخلو من عنف الحيوانات الأخرى. تخلو من غطرسة الديك وعنف التيس. ويلتحم الذكر بالأنثى. صحيح أنه يعلوها قليلاً لكن يبدو أن ذلك لا يعيق حركة الأنثى ولا يقيد جناحيها. وهذا الالتحام يختلف كثيراً عن الطابع الاستعراضي والسريع الإنزال الذي نجده عند الديك. فحين يلتحم ذكر الذباب بأنثاه، يبدو وكأنهما دخلا حالة من الوجد الغامض، وقررا ألا ينفصلا ما دامت فيهما قوة أو حياة. ويرقبهما المرء، فيعجب حين يراهما يغيّران المكان الذي يتحابّان فيه، وكأنهما يريدان أن يجدّدا المتعة، فيطيران بأجنحة أربعة متناسقة، وغالباً ما يبحثان عن بقعة، يصيبها شعاع من الشمس، فيحطّان فيها طالبين أن يمدّهما الدفء بمزيد من الرغبة والقوة. ومرة حاولت أن أعرف كم يمكن أن يستمر هذا الالتحام، ولكني مللت قبل أن يبدو عليهما أنهما سيفكان التحامهما. كنت طفلاً.. فشعرت بالغيظ وبدأت أطاردهما. وما يدهش في الأمر أنهما تحمّلا كل المطاردة، وهما متلاحمان يطيران بأجنحة أربعة.

وأخيراً استطعت أن أهرسهما بضربة من شحاطتي. قد يكون الذباب مزعجاً، وربما ضايق الإنسان وأقلق راحته، لكن هذه الشرور كلها تبدو صغائر تافهة، إذا ما قيست بالوحشية السادية والمجانية، التي بدرت من طفل وهو يهرس جسدين صغيرين متلاحمين بحب وحنان. صحيح إن القوي هو الذي يضع القيم والمعايير. ولكن لو تناسى الإنسان قليلاً أنه الكائن الأقوى على هذه المجرة، ولو عاين ما فعله وما يفعله، وقارنه مع سلوك أشد الحيوانات عدوانية ووحشية، لوجد أنه الأكثر وحشية وعدوانية بين كل وحوش الأرض ودوابها وحشراتها.

كان ينبغي أن أكبر، وأن أفشل في الحب مرات عديدة، كي أكتشف أن الإنسان يفتقر كثيراً إلى الحساسية والجمال، اللذين يتحابّ بهما الذباب. وفي لحظات.. كثيراً ما حسدت الذباب على تلك القدرة على الطيران بأجنحة أربعة، وبشهوة تتدفق في العروق متجددة ومديدة.

في الفقرة الرابعة كنت أريد أن أتناول نماذج من المناوشات الفردية بين الذباب والإنسان، والتي تنتهي أحياناً إلى نتائج كارثية غريبة. وكان في ذهني أن أبدأ هذه الفقرة بفيلم قصير مأخوذ عن مسرحية ليونسكو، عنوانها «الغضب». والفيلم هو جزء من سبعة أفلام قصيرة، عنوانها «الخطايا السبع»، وشارك في إعدادها أكثر من مخرج.

(في مسرحية أوجين يونسكو القصيرة، يخرج الناس من الكنائس بعد أن أدّوا صلاة يوم الأحد، ثم يتبادلون أعذب التحيات والابتسامات مؤكدين أن كل شيء حسن. النور، والعالم، والصباح المشرق، ووجوه الناس المغسولة، والضحكات الوضاءة، والمحبة الغامرة. ويهجع كل إنسان إلى رفيقة عمره متفائلاً وسعيداً. انتهت المتاعب، وانقشعت السحابات، التي كانت تربض خلال أيام الأسبوع، حاجبة وجه الشمس، ومرخية ظلاً من الهموم والمتاعب. ومن أجهزة التلفزيون ينبعث نشاز، رغم اختلاطه وعدم وضوحه، يوحّد بين

كائنات باريس السعيدة في صباح أحد ما، يتوج أسبوعاً ما، من سنة ما..

آه.. ذلك هو الوجه السطحي للوجود الإنساني. وليس من يجرؤ على تخيُّل ما يكمن خلف التآلف العابر، الذي يشع على وجوه الناس جميعاً. بعد قليل سيجلسون إلى مائدة الغداء، وسيكتشف كل زوج بطريقة غريبة للغاية، أن ثمّة ذبابة في الحساء. طبعاً للذبابة هنا معنىً يتجاوز تلك الحشرة ذات الأجنحة الشفافة والعيون الكروية التي ترى ما تأخر من مرئيات. إنها الكراهية النائمة، والسأمة التي تعنكب في صميم الإنسان، فتفسد صفاءه، وتخرب الابتسامة التي تغسل وجهه. ويصرخ زوج، ثم يتلوه خطيب، فزوج آخر. وتجيب زوجة، ثم تتلوها خطيبة، فزوجة أخرى.. وترتفع الصرخات، ويعلو الصخب. ومن بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع، وتنفجر كل الذبابات المعنكبة في أعماق البشر، وتنسفح أوعية الحساء، ثم تشبُّ الحرائق، وتنطلق الصواريخ شرقاً وغرباً فتدمر العالم! إن ذبابة في الحساء قد فجّرت العالم، أحرقته ودمرته. لقد حمّل يونسكو هذه الحشرة، التي يراها صغيرة وتافهة مشاعر الدمار الكامنة في أعماق البشر، والعبث الذي يطبع هذا العالم، وكأنه جزء من حياته اليومية. هذا ما يود يونسكو قوله في مسرحيته القصيرة «الغضب». وقد يبدو حين يتابع الإنسان الفوضى التي تسود حياتنا، أن ذلك صحيح بصورة مرعبة، تدفع الإنسان إلى التخلي، وإلى الصياح بأعلى صوته.. ليذهبْ كل شيء إلى الجحيم، ولتنتهِ هذه اللعبة المدوخة! صاروخ ينطلق في نيفادا. إنسان بوذي يشعل النار في جسده بحثاً عن حرية بلاده. زنجي يهرق صوته مطالباً بحقه في أن يكون، وأن يمارس إنسانيته. وثمة تهديد يعوم على أجنحة الأثير، ومذياع يبعث الموسيقا الواخزة، وكلمات بعينها تتردد.. دائماً تتردد. إن السلام كلمة جميلة الإيقاع، وحمامته تطير كسيرة الجناح.

يشعر المرء أنه يختنق، وأن الغضب قد خنق العالم بالضباب، وبأدخنة المازوت السوداء. ولم تبقَ إلا لحظات يسيرة، ثم يدوي الانفجار الساحق.. فيلمُّ رداء الصمت الحكيم والمجنون، الحقيقي والتافه، في قماط واحد، يعيد

للبشر وحدتهم الأولى، حين لم يكن قابيل قد قتل هابيل، وحين كانت الشمس ما تزال ضوءاً لاهياً، لم تملأه وقائع أرض تدور حول نفسها بالدم والصديد.

لا.. ليس ذلك حقيقياً. إني أعلم كيف تحاول كل الظواهر تأكيد هذا الطابع الرخو لوجودنا. وكيف تمارس التناقضات الوفيرة إرهاباً يومياً ضد الأمل، الذي ما يزال يستطيع التفكير بالغد، بما يلي عطلة الأسبوع، والذبابة المتثائبة في الحساء.

مما لا يمكن قبوله، أن يكون العالم هذه النكتة السفيهة، تطلقها قوىً تريد أن تهزأ. ومما يتعارض حتى مع تعاقب الليل والنهار، وابتسامات العجائز علي حواف القبور، وعدو الصغار خلف عجلاتهم الصغيرة، أن نكون بنياناً من الرمال، وكثيباً من المزاح، يتبدد مع تلاشي فقاعات الضحكة في الأفواه.

من الراديو تتدفق أنغام نقية وعذبة. وامتدت أصابع مرحة فالتقطت الذبابة، نظرت إليها دون قرف، ورمتها في صحن البقايا.. ثم تطاولت البسمة وامتدت. سيكون بعد الظهر جميلاً، وستغسلنا الأمطار فتنقشع المرارة، وتتناءى الأحلام المرعبة، لأننا نعرف أن الضوء يؤوب دائماً رغم أسفاره المنتظمة.)

وعلى كل ليس الذباب بريئاً دائماً في علاقته بالإنسان. فمرة حطَّ سرب من الذباب على فم «غسان الموعي»، الذي انفرجت شفتاه اللاحمتان. وكان غسان سميناً ونهماً. تناول غداءه، واسترخى في قيلولة عميقة، لم يكدرها أبداً تهافت الذباب على شفتيه وفمه. وحين رأت منى، زوجته الحساسة والمليحة الوجه، كيف يدخل الذباب ثم يخرج منه، وكيف تختفي الشفتان المكتنزتان تحت تزاحم سرب الذباب، جاشت معدتها وهرعت إلى الحمام، فتقيأت ما تناولته على الغداء. وبعدها صار مجرد النظر إلى زوجها، يجعلها

تشعر بالنفور والمرض، وبأنها لا تستطيع أن تتحمل اقترابه منها. وفي النهاية خيَّرت الجميع.. الزوج والأهل بين الموت أو الطلاق. ولم تنفع كل المحاولات التي بذلها الأب والأم لثنيها عن عزمها. فتم الطلاق دون أن يعرف أحد على الإطلاق السبب الحقيقي والمباشر، الذي جعلها تتخذ هذا القرار، وبهذا الإصرار الحازم.

ويمكن أن يغدو الذباب تسلية متواضعة لرجل يشعر أنه غدا ضئيل القيمة، عديم الجدوى. ففي صيف ١٩٥٩، وكنت قد حصلت على شهادة البكالوريا، التقيت في الباص الذي ينقلني إلى اللاذقية، حيث كان علي أن أحضِّر بعض الأوراق الرسمية لاستكمال معاملة البعثة، التي كنت مرشحاً لها. في الباص التقيت «حسن الطافش» أستاذ الجغرافيا، الذي درَّسنا عدة سنوات، وكنا نحبه كصديق. سلمت عليه بحرارة، وسألت عن أحواله، ففاجأتني نظرة انكسار في عينيه، وبدا لي وكأنه قد ازداد قصراً على قصره. بعد وقت بدا لي طويلاً جداً، قال لي:

ـ لقد صدر قرار بتسريحي.

صحت مندهشاً:

ـ متى؟

قال بصوت خفيض، وكأنه يواري غصة:

ـ منذ أسبوعين.

ـ وما السبب؟

شدَّ نبرة صوته، وقال:

ـ بتهمة الشيوعية.

وفي تلك الفترة، لم أكن أتعاطف مع الشيوعيين، بل وشاركت في مظاهرات ضد عبد الكريم قاسم والشيوعيين معاً. ومع هذا فقد بدا لي تسريح أستاذ الجغرافيا عملاً جائراً، يثير الغضب، ولا يمكن تسويغه. ولقد أرتج عليَّ، وخفت أن يبدو أي كلام أقوله، وكأنه نفاق أو تظاهر. التفت إليه، وقلت:

ـ هذا النبأ أحزنني بالفعل، وأتمنى أن يكون بوسعي زيارتك في البيت.

أجابني:

ـ إذا كان ذلك لا يحرجك، فأهلاً وسهلاً بك متى شئت.

بعد أسبوع تقريباً زرته في بيته، رحّب بي بحرارة، وأدخلني إلى الصالة الصغيرة. كان يرتدي بيجامة فضفاضة، أظهرت قصره وضآلته بشكل فكِه، وكان يحمل بيده قتّالة ذباب بلاستيكية. وما إن جلسنا وتبادلنا بضع كلمات حتى رأيته يثب، ويمضي إلى الطرف الآخر من الغرفة، ويهوي بسلاحه البلاستيكي على ذبابة تحطّ على مسند الكنبة، وصاح مبتهجاً:

ـ قتلتها..

وقد كرر ذلك مرات عدة خلال زيارتي القصيرة له، وكان يقول:

ـ لم أكن أعلم، أن صيد الذباب ممتع إلى هذا الحد. لقد غدا أستاذ الجغرافيا رجلاً بلا معنى. فقد كرامته، وتهافت إلى كائن أُهينت إنسانيته، وانتزعت منه هويته.

بعد سنوات سأرى فيلماً بولونياً أو هنغارياً، عنوانه «صائد الذباب». وهو يتحدث عن رجل همَّشه النظام الشيوعي، وحوّله كائناً بلا معنى وبلا هوية، فجلس في بيته، وسط لوم وكراهية عائلته، وتفرّغ لصيد الذباب.

كنت أعرف أشياء كثيرة عن الذباب، ولكن لم أكن أعرف صلته الوثيقة بالسياسة. ولم تتوضح هذه الصلة بشكل جلي وفاضح، إلا حين دخلت مع طلال سلمان إلى كشك مخابرات على الحدود السورية/ اللبنانية، لكي يسجل طلال أننا ندخل إلى سورية عبر الطريق العسكري. وفيما كنت أنقل بصري بين الصور واللافتات، التي تملأ جدار الكشك، استرعت انتباهي لافتة كرتونية كبيرة نسبياً، ومكتوب عليها بخط رديء.. «الفم المغلق لا يدخله الذباب». وبهذا المعنى فإن الصمت يجنبنا الذباب، ويجنبنا أيضاً المتاعب السياسية.]

كانوا قد وزعوا العشاء في القسم. وكان مؤلفاً من حساء ماجي الملون، وقطعة دجاج مقلية على طريقة البروستد، وصحن محلاية. كان واضحاً أنهم لا يراعون في المستشفى الوضع الخاص لأي مريض. ويبدو أن الجوع أو غرابة المذاق جعلا العجوز تأكل بنهم كل ما وجدته على الصينية. وما إن فرغت من الطعام حتى بدأت تولول، وكانت تصيح:

ـ أنا ما أَتعب إلا حين آكل. أَريد أَرجع إلى بيتي.

هدأت لحظات، ثم صاحت:

ـ إنتي يا غندورة تعي لئ.

وجاءت الممرضة، التي كانت قد أرهقتها بالرواح والمجيء. سألتها ماذا تريد. فأجابت:

ـ أَريد أَستفرغ.

وجاءتها الممرضة بوعاء، وكان إقياؤها كالخوار، أو كأنها تسلم الروح. بعد أن نظفتها الممرضة، وخرجت حاملة وعاء قيئها، أصابتها فجأة فورة من الغضب فراحت تصيح. تارة تنادي ابنها، وتارة تشتم. وحين عادت الممرضة لتهدئها، وجدتها قد انتزعت إبرة السيروم من ذراعها، وتركته يسيل على الأرض، بينما يسيل دم ذراعها عليها وعلى الفراش. وغضبت الممرضة وصاحت بها. ثم راحت وجاءت بالطبيب المناوب. وبدأ الاثنان يتعاونان على إعادة السيروم وسط صراخ العجوز وشتائمها. وعندما نجحا في إعادة السيروم، ربطا يديها إلى جانبي السرير، فازدادت العجوز قهراً على قهر. ولم يعد يتوقف صياحها وأنينها وأحياناً هذيانها.

جاءت الممرضة فوجدت أن صينية الطعام لم تمس. سألتني:

ـ ألن تأكل؟

قلت لها:

ـ لا.

قالت:

ـ ولكن لا يجوز أن تظل بلا طعام.

قلت لها:

ـ خذيها. لا أستطيع أن آكل.

فأخذتها وخرجت. أغمضت عينيّ متجاهلاً أنين العجوز.

[في الخريف ولا سيما عندما تبدأ الأنسام الباردة، يلجأ الذباب بكثرة إلى البيوت طلباً للدفء. وإذا وجد دكان يبيع العنب الجرديّ، وبعض أنواع الحلويات، فإن الذباب يفضله على البيوت. وتتضاعف الأعداد التي تتقاطر إلى الدكان. وفي المساء عندما لا يبقى إلا ضوء قنديل الكاز، الذي لا يكاد يبدد العتمة، تتعلق أسراب الذباب كالعناقيد في سيخ الحديد المعلق بالسقف والمثني في طرفه، كي تعلق فيه إما سلة طعام أو بعض المعروضات، التي يريد التاجر أن يلفت النظر إليها. وكان منظر تلك الأسراب العديدة من الذباب، التي تتعلق بقضيب الحديد وتخفيه، تثير الشهوة إلى الإبادة. وفي القرية اشتهر اثنان أو ثلاثة من أصحاب الدكاكين ببراعتهم في استخدام النار للإبادة. فقد كان الواحد يملأ فمه بزيت الكاز، ويقف تحت قضيب الحديد، وبيده كبريتة وعود ثقاب. يرفع وجهه إلى الأعلى، ويبخُّ السيخ بالكاز الذي يملأ فمه، ويتبعه فوراً بعود الثقاب المشتعل. فينفجر لسان من النار يصل إلى السقف، وتتكوم على الأرض أسراب الذباب المحترق، بعد أن فاجأته نيران الجحيم، وهو يتلمس شيئاً من الدفء والنوم. وكان الرجل الذي يشعر باللذة والانتصار، يكنس الأرض ثم يتمضمض بقليل من الصابون، ويعود إلى الجلوس وراء منصة الدكان، وكأنه عاد منتصراً من حرب ضروس. ولكن ذات يوم يبدو أن «مصطفى العنتر» الذي يحب التبجح، قد ملأ فمه بكمية كبيرة من النفط، ولذا فحين بدأ يبخ القضيب الذي يحمل أسراب الذباب، بدأ النفط يسيل من زاويتي فمه على ذقنه. وقد حدث شيء

غريب، حين ارتدَّ عمود اللهب المتصاعد في الجو إلى الفم الذي يبخُ النفط، فاشتعلت النار فيه ممتدة إلى الذقن والعنق. وما استطاع الحاضرون أن يطفئوا النار، التي تأكل فمه ووجهه إلا بعد أن شوهته، وسببت له عاهة مستديمة في الوجه. بعد هذه الحادثة أقلع الناس في قريتي عن استخدام النفط والثقاب لإبادة الذباب.]

جاءت فايزة تحمل عصير برتقال وزبدية من التفاح المسلوق وشرائح الموز. ألحت عليَّ كي أشرب كأس العصير، فلم أستطع. آلمتني حموضة البرتقال، ولم أستطع ابتلاع الجرعة إلا بشق النفس. وضعت العصير جانباً. قالت:

ـ طيب.. دعني أطعمك قليلاً من التفاح والموز.

وبعد إلحاح شديد، استطعت أن أبلع بضع ملاعق صغيرة من التفاح المسلوق. كان مؤلماً ورهيباً أن أدخل أي شيء إلى فمي، ورجوتها أن تعفيني من هذا الألم. فرضخت حزينة وآسفة. جلست قربي، وحاولت أن تقرأ في كتابها عن بناظير بوتو. وبدأت العجوز تردد بطريقة غريبة: «ذابت؟» وتصمت لحظات ثم تجيب: «لا.. ما ذابت.» وهكذا دون انقطاع. وسألت فايزة:

ـ ماذا تقول؟ هل تنادي أحداً؟

قلت لها:

ـ لا.. ربما أعطتها الممرضة حبة دواء، لكنها لا تعرف هل بلعتها أم لا.

وحين غالت في التكرار، صاح مريض القلب من غرفته:

ـ ذابت. ذابت. خلصينا ونامي.

توقفت العجوز فترة قصيرة، ثم عادت تكرر بالإيقاع الرتيب ذاته: «ذابت.؟ لا.. ما ذابت.»

قلت لفايزة:

- إني أشعر بالوحشة والخوف.

قالت:

- هذا شيء طبيعي بعد الصدمة التي مرَّت.

تطلعت إلى وجهها، فأحزنني الشحوب المزرق الذي يكسو تقاطيعها. كان واضحاً أنها منهكة جداً، وأنها إذا لم تأخذ قسطاً كافياً من الراحة ستنهار قريباً. وكنت أحمل همَّ أختي التي آثرت أن تبقى إلى جانبي. وكنت أعلم أنها لا تأكل، وأنها قد لا تتحمل الذهاب إلى البيت، والنوم بمفردها. لا سيما وأنها تتعرض أحياناً لحالات من الإغماء بسبب فقر الدم وضغطها المنخفض.

قالت فايزة:

- لا عليك منَّا. انشغل بنفسك فقط.

وقلت لها محتجاً:

- لا أستطيع.

وطلبت أن تجد من يرافق أختي، وينام معها في البيت. كذلك طلبت من فايزة أن تتركني، وأن تنام باكراً هذه الليلة. احتجت وقالت إنها ستعود بعد أن ترتب أمر أختي. فغضبت وقلت:

- سأزعل جدياً لو عدتِ.

تركتني وما زالت العجوز تردد.. «ذابت.؟ لا.. ما ذابت.» وحاولت أن أركز انتباهي على حوجلة الأوكسجين، وأن أستعيد ذلك المزاج اللاهي، الذي ساعدني تلك الليلة. سمعت الوشوشة، ولويت رقبتي لأرى بريق الأزرق المخضر، لكن لم أستطع التركيز، ولم أستعد تلك الجمالات القمرية التي تذهل، وتلهب الذهن بالضوء والطاقة. وذبابياتي لم يبقَ فيها إلا فقرة واحدة، هي تلك التي تحكي قصة هذه الحرب الأزلية بين الإنسان والذباب، والتي لم يحرز فيها الإنسان أي انتصار فعلي. ولكن ذلك لم يعد مسلياً. أغمضت عيني محاولاً أن أجد غفوة. كانت في فمي بقايا صغيرة من التفاح تتحمض ببطء.

وكنت كلما بلعت ريقي، تتقلص معدتي بطريقة موجعة. مرة كدت أغفو غير أن معدتي تقلصت، فصحوت. وكان يشوب تقلصات معدتي شيء من الخوف، وقلت في نفسي.. «لن تهدأ هذه التقلصات، وأنعم بالاسترخاء وربما بالنوم، إلا إذا بدّلت خواتم المسرحيات كلها، وجعلتها سعيدة.» ورأيت مسرحاً تشغله عائلة، يرتدي أفرادها ثياباً عجيبة وزاهية. كانوا يقدمون استعراضاً يشبه تلك التي نراها في بعض أفلام هوليود، أو التي رأيتها مرة في أحد مسارح برودواي بنيويورك. ورغم أن مثل هذه الاستعراضات ينتهي دائماً بخاتمة سعيدة، إلا أني لم أفهم لماذا بالغ الأب، ودفع ابنته الجميلة في نهاية المسرحية، كي تقدم للمتفرجين ختاماً ثانياً من المشاهد البورنوغرافية. أصابني تقزز، وتقلصت معدتي بشدة وانتفضت، والعجوز لا تتعب من التكرار.. «ذابت.؟ لا.. ما ذابت.»

[كنا نستأجر غرفة وحيدة على سطح بيت يقع على شاطئ البحر، وعلى يساره يجري «المسيل». سأترك وصف البيت المبني من حجارة رملية، وعلاقته بالبحر لا سيما في ليالي الشتاء العاصفة إلى مناسبة أخرى. لأني أرى على السطح، وهو فسيح نسبياً، حشداً من الوجوه التي تنتظر. ورغم أن هناك مقاعد، هي كتل حجرية مصفوفة، فإني أرى الجميع واقفين. وفجأة ميزت الشاهد، كان يتكلم ويشير بيديه. ورغم أني لم أسمع ماذا يقول، فقد أدركت أنه كان، بشكل أو بآخر، مسؤولاً عن هذا الحشد، وأن له صفة قيادية لا أعرف كيف أحددها. وفيما كنت أراقب المشهد، التفت إلي ببساطة، وسألني:

- هل أنت جاهز؟

وأجبته بصورة آلية، ودون أن أعرف عما يسألني:

- لا شك أني جاهز.

وعجبت من نفسي لأني استخدمت هذه الصيغة التأكيدية الغريبة. ولكن في اللحظة ذاتها، كان الشاهد قد رفع يده مثل قائد أوركسترا،

وبدأ يُنزل من الفضاء مسرحاً، أو خشبة مربوطة من أطرافها الأربعة بحبال متينة وغليظة، تلتقي فوق مركز الخشبة ملتفاً الواحد على الآخر، ومشكلاً رباطاً ثخيناً ومتيناً يرتفع، ويختفي في الفضاء. وقلت في نفسي.. «ألم أكن أحلم دائماً بمسرح معلّق! ويستطيع الناس أن يلتفوا، أو يدوروا حوله كما يشاؤون. من المؤكد أن هذه إحدى أفكار الشاهد، ولعله استخدم منشرة أبيه كي يُعدَّ هذا المسرح.» اقتربت منه، وأردت أن أشكره، فقال:

ـ لا تكن مضحكاً. أنت من ينبغي أن نشكر، ولكن لا تدعنا ننتظر أكثر من ذلك. هل حملت النص؟

قلت له:

ـ إني أحفظه.

ـ ماذا تنتظر إذن!

ودفعني نحو مرقاة من الحبال، لم أكن قد لاحظتها من قبل. فتسلقتها، واعتليت الخشبة التي تهتز في نوسان لا يكاد يُحس. مسحت الخشبة بنظري، فرأيتها تقف في الطرف القصي، وقد التفّت بإزار أبيض فضفاض وطويل. كان من المفروض أن كل شيء واضح في ذهني، وكان عليَّ أن أتجه إلى الطرف الآخر من الخشبة، حيث عُلّق على الحبل إزار أبيض وفضفاض ينتظرني. ذهبت. خلعت ملابسي، وتلفعت بالإزار الأبيض. وحين التفتُّ، كانت قد غدت هي في المقدمة، حيث بدا المكان وكأنه زاوية في مقبرة. بضعة صناديق من الخشب على شكل قبور ذات شواهد، وبينها تنمو خضراء ونضرة نباتات «العيرون»، وزهور «مؤنس الغرباء» النهدية والصفراء، إضافة إلى الأقحوان وشقائق النعمان. اقتربت منها، وأنا ألفُّ إزاري حول جسمي. جلست على قبر مجاور كالقبر الذي اختارت الجلوس عليه. بدت نحيلة جداً. كنت أسترق النظر إليها خلسة، ولاحظت كم تبدو نحيلة حين تشد إزارها حول جسدها!

هي : لماذا لا تنظر إلى وجهي؟

أنا : أخشى أن أجد عتاباً في وجهكِ.

هي : **(قهقهة غريبة وجافة)** ألا تعلم أني أصبحت وراء العتاب والحزن والغضب!

أنا : **(مختلساً النظر إلى وجهها)** يا الله! هذا هو وجهك الذي أعرفه.

هي : **(ببرود)** لم تعرف وجهي أبداً. وما تراه الآن ليس إلا قناعاً، استعرته من أجل هذه اللعبة.

أنا : إني أحس في صوتك نبرة لوم.

هي : ليس لصوتي نبرة. والذين يموتون لا يبالون، ولا يلومون. لو جئتَ أبكر لما كنت تسأل الآن هذه الأسئلة.

أنا : أكنتِ ترغبين أن أجيء أبكر؟

هي : لا يرغب الميت شيئاً. ولكن أذكر أنك كنت ترثي نفسك كثيراً، وتُهيّئ أهلك وأصدقاءك لموت وشيك.

(هنا يرفع الشاهد يده، ويتجه نحو الحشد، الذي جلس على كتل حجرية مع بدء الحوار.)

الشاهد : الآن أعتقد أن عليَّ أن أقدم شهادة. أثناء العطلة الصيفية، ورغم أن أحداً منا لم يكن يغيب عن الآخر فترة طويلة، فإما أن يزورني في طرطوس وإما أن أزوره في القرية، فقد كنا نتبادل الرسائل بشكل منتظم، وأعترف أنه كان أنشط وأكثر مثابرة مني على الكتابة. ما زلت أحتفظ بهذه الرسائل. **(يسحب من جيبه رسالة سميكة ومطوية. ويعرضها على الحشد.)** ولم تكن رسائله تخلو أبداً من التذمر والشكوى. وكانت نغمة الموت تكاد تكون اللازمة، التي تنتظم كل الرسائل. وذات صباح وصلتني منه رسالة، وحين قرأتها ارتعشت، وسرت برودة في ظهري. **(يفتح الرسالة ويلتقط**

بعض عباراتها) كان يؤكد أن السرطان يفترس بلعومه، وأن ما تبقّى له في الحياة لم يعد طويلاً. وأضاف أنه ضاعف عدد السجائر التي يدخنها، كي يعبر عن ازدرائه للسرطان. ثم ختم رسالته قائلاً.. ولا تدع الخبر يهزك، فأنا لا أرى الحالة مأساوية. وفي النهاية لن أخسر إلا حياة لا تعاش، وسجناً لا يختلف عن سجن طرطوس الشبيه بالإسطبلات. يومها أسرعت، وركبت إحدى سيارات الجيب، التي تؤمن المواصلات إلى حصين البحر.

أنا : سيقول إنه اشترى من دكان على الطريق عدداً من علب السجائر، وإنه فوجئ حين لم يجدني في القرية على فراش الاحتضار. أنت تعرفين على الأقل، أن هاجس الموت لم يكن يفارقني، وأن الآلام التي كنت أحسُّها، لم تكن كاذبة. لا يحق لأحد أن يتهمني بالتلاعب. ماذا أفعل! كان علي أن أنتظر خمسة وثلاثين عاماً حتى يفترس السرطان بلعومي، ويتحقق ما هجست به في رسالة قديمة لصديق قديم.

هي : وفيمَ يهمك ذلك! إنك بغو في الموت، كما كنت بغواً في الحب.

أنا : أترين! رغم كل شيء فإنك تذكرين.

هي : كما تحتفظ أشرطة التسجيل بالأصوات المسجلة عليها، فإن الذكريات تصاحب الميت، وترافقه كأصوات أو هزات في الأثير.

أنا : وهل يستعيدها، وينفعل بها؟

هي : **(وهي تنهض)** هل أتوا بي كي أكون معلمتك! الموتى لا يستعيدون شيئاً، ولا ينفعلون.

أنا : أين تذهبين؟

هي : سأقطف زهرة القمر. **(تصل إلى الزاوية التي ظهرت فيها عند**

بداية العمل. تمسك الحبل الذي يثبت الخشبة، وتهزه بعنف، فتتأرجح الخشبة بصورة شبه دائرية.)

أنا : (**صائحاً**) ماذا تفعلين؟

هي : إني أتسلق الهواء كي أجد زهرة القمر.

(في هذه اللحظة يلتفت الشاهد نحو مدرسة اللاييك، التي تقع على الضفة الثانية من المسيل. يضيء باتجاه المدرسة مصباحاً يدوياً، فنرى على الفور قمراً يصعد بصورة تدريجية من وراء جدار السطح، ثم يسبح في الفضاء الصغير مقترباً من الخشبة، ومسلطاً ضوءه على الفتاة، التي تغدو مع بياض إزارها، وانعكاس ضوء القمر عليها، شبيهة بالوهج الذي يعشي الأبصار.)

أنا : يا الله.. إنك تتلألئين!

هي : تلك هي زهرة القمر.

(تعود وهي تحمل زهرة شديدة البياض، غريبة التكوين، تنبعث منها رائحة عطرية نفاذة وقوية.)

أنا : هذه الرائحة.. أكاد أذكر.. أين.؟ أين.؟ أين.؟ أكاد أذكر..

(وهو يحاول التذكر، يلاحظ أن القمر القريب جداً، يستدير بصورة مرنة كي يغمر المرأة بالضوء.) انظري.. لقد استدار القمر كي يغمرك بنوره .

هي : من يدري! مع ولوج الموت أعمق فأعمق، قد تجد قمراً يستدير كي يغمرك بنوره.]

وعادت العجوز تكرُّ حبات مسبحتها الصوتية «ذابت.؟ لا يمكن ما ذابت. ذابت؟ لا.. ما ذابت.» وصاح مريض القلب مرة أخرى:

ـ لقد ذابت. فاسكتي ونامي.

ولكن العجوز لم تعره أدنى اهتمام، وواصلت «ذابت.؟ لا.. يمكن ما

ذابت.» وكانت ما تزال بقايا اللقمات الأربع، التي تناولتها من التفاح المسلوق تتخمر في فمي، وتنسرب إلى معدتي، فتثير فيها تقلصاً موجعاً. وكان النوم مستحيلاً. والإرهاق الجسدي والعصبي يتفاقم ساعة بعد ساعة. وعدت إلى مسرحي المعلق في الفضاء.

[**وقالت لي** : من يدري.. مع ولوج الموت أعمق فأعمق، قد تجد قمراً يستدير كي يغمرك بنوره.

أنا : أتظنين.؟

هي : قلت من يدري.

أنا : اسمعي.. إن بيننا حكاية.. ينبغي أن أرويها، أو أن نرويها.

هي : **(تقف تحت ضوء القمر الساقط عليها بشكل مائل، وتقوم بحركات تشبه حركات امرأة، تقف تحت الدوش وتستحم.)** وما أهمية روايتها؟

أنا : أشعر أن موتي لن يكتمل إلا إذا رويت حكايتنا.

الشاهد : **(وهو يوجه ضوء مصباحه اليدوي إلى وجهي)** هنا تحريف يجب أن تسجلوه. منذ سنوات طويلة لم نعد نلتقي إلا نادراً. ولكن في إحدى هذه اللقاءات النادرة، وكنا نسترجع أيام الدراسة الثانوية، وحياتنا في طرطوس، أذكر جيداً أنه قال لي.. أشعر أن حياتي لن تكتمل إذا لم أرو حكايتي مع..

أنا : نعم.. كنت أقول ذلك. ولكن الحياة مرّت كمركبة نفاثة. ولم أعرف إلاّ بعد فوات الأوان، أن الحياة لا تكتمل أبداً. أما هنا فإن الأمر مختلف. الموت قابل للاكتمال، والحكايات يمكن أن تنفض كل خفاياها غير عابئة بالأحياء وحماقاتهم.

الشاهد : هل أفهم أنك لم تجرؤ على روايتها للأحياء.

أنا : ربما.

الشاهد : **(للمتفرجين)** إذن سجلوا ذلك.

هي : إن ماء القمر الفضي بارد ومنعش.

أنا : هل تستحمين دائماً بأشعة القمر؟

هي : وما حاجة الموتى للاستحمام! إني ألاعب القمر. كنت أحاول أن أتسلق إليه فيرشقني بمائه الفضي البارد، ويعيدني إلى الأسفل. مرة كدت أمسك به، لكنه انتبه فجأة، فانقلب على ظهره، وانعطف سابحاً نحو جهة أخرى. ويبدو أنه نسي أني أتمسك بأشعته، فسقطت كحجرٍ، وفقدت إصبعين من أصابع قدمي اليسرى. أتريد أن ترى؟

أنا : لا.. لا.. أرجوك. أريد أن تظلي في ذاكرتي كما عرفتك.

هي : **(يختلف صوتها)** هل عرفتني فعلاً؟

(يقترب الشاهد، ويضع في مقدمة المسرح جهازاً يضخم الصوت، ويلاشيه ببطء فيما يشبه الصدى.)

الشاهد : **(للمرأة)** لا أدري إن كان يحق لي أن أوجه لكِ الكلام، ولكن سيكون كرماً كبيراً منك، لو أعدت هذه الجملة مرة أخرى.

هي : **(بصوت بارد وآلي)** هل عرفتني فعلاً؟

(يضخم الجهاز الصوت، ويلاشي الصدى بصورة تدريجية وبطيئة.)

أنا : كان يجب ألا تقبلي.

هي : ألم يكن صديقك؟

أنا : دعينا منه الآن، وسيأتي وقته. تسألينني هل عرفتك حقاً! عصر يوم خريفي.. **(صمت)** كان الفصل خريفاً، وكان الوقت عصراً، وكنت أقف مع بعض الشباب أمام دكان حامد على الصخرة المطلة على الطريق العام. كان عصر ذلك اليوم الخريفي.. لحظة زلزلت كياني، وأرجحتني على أحلام غامضة ونائية، ظلت ترافقني أياماً. رأيتك.. رأيناك..

لأن الجميع تلجلجت ألسنتهم بما كانوا يثرثرون، وتعلقت نظراتهم بكِ، وأنت تسيرين إلى جانب أخيك هادي في مشوار مسائي لطيف.

هي : كم تمنيت أن أرى هادي قبل أن أموت!

أنا : كان مسافراً. كان كلانا مسافراً حين..

هي : نعم لم تكونوا تفكرون إلا بالسفر. وغالباً ما كنتم تهملون وداعنا.

الشاهد : **(يضيء المصباح في وجهي)** لماذا لا تذكر لها ماذا كتبت حين وافاك النبأ.

أنا : **(غاضباً)** كفى.. اسكت ولا تقاطعني. سأحكي كل شيء في وقته. **(ينهض غاضباً)** كنت أقف على صخرة. نعم.. هناك. كنت مغروساً ومبهوتاً أتابع مشيتك الرشيقة والمثيرة. كل هذا لا يبدو له أي معنى. ينبغي أن أحكي عن المناخ الذي كنت أعيش فيه. ينبغي أن أتحدث عن تلمسي للوجودية، وما تنعم به البلاد الأخرى من حرية وجمال. ينبغي أن أتحدث عن ضيقي من القيود والتقاليد البالية، التي كانت تجعلنا نعيش حياة فقيرة وكئيبة. ينبغي أن أقول.. إني على صغر سني كنت أكتب بياناتٍ عن التحرر والحرية، وألصقها بعد منتصف الليل على أبواب الدكاكين. ولكن في الوقت نفسه، ينبغي ألا أقول شيئاً، لأن رؤيتكِ كانت ساحرة بذاتها، لا تحتاج إلى خلفيات تسندها، أو تفسرها. كنت ترتدين بنطلوناً، ولم تكن قد سبقتك إلى ارتداء البنطلون صبية في هذه القرية. كنت ترتدين فوق البنطلون بلوزة خفيفة ومرخية بإهمال فوق البنطلون. أما قصة شعرك الغلامية فقد كانت أكثر ما هزني، وحرّك تلك التموجات

الغامضة، الشبيهة بالتشنجات اللذيذة في داخلي. **(تنهض المرأة وتمضي إلى عمق المسرح)** أين تمضين؟ هل ضايقك كلامي؟ أتعلمين.. لقد أحدثت بمشوارك القصير في ذلك اليوم الخريفي انقلاباً عميقاً في حياة القرية وبناتها. لقد أشعلت شرارة التمرد، وسيكون من العسير بعد ذلك، أن يطفئها أحد. وعلى كل، كان كل شيء مهيأً لكي تتغير صورة الحياة حولنا. ولم يكن ينقصنا إلا هؤلاء الذين يخاطرون، ويعلنون التغير بحياتهم وسلوكهم. **(يصفق الشاهد، فيتبعه الحشد بالتصفيق. يتلفت حوله بارتباك، ويشعر بضيق.)** يا الله.. بدأت أشعر أني مضحك. لا ألومهم إذا سخروا مني. كنت أريد أن أصف لك تلك الخفقة، التي تحوَّلت رفيفاً ناعماً في الصدر. لكن قادتني الحماسة حتى تحولت إلى الخطابة. أين اختفيتِ؟

هي : **(تعود من الطرف القصي للخشبة، وقد ارتدت بنطلوناً وبلوزة، وسرحت شعرها تسريحة غلامية.)** أهكذا رأيتني؟

أنا : نعم.. هكذا رأيتك.

هي : هل تحس تلك الخفقة التي كنت تتحدث عنها.

أنا : أذكرها كأنها تحدث الآن.

هي : نعم.. ذكريات كالأمتعة العتيقة المستهلكة. هادي هو الذي اختار لي الثياب وتسريحة الشعر. أراد أن أكون أول متمردة في القرية.

أنا : وكنتِ بالفعل تلك المتمردة. ألم تغذي جدل الناس ولغطهم أشهراً عدة.

هي : لا شيء.. لا شيء.. حسدتني بعض الفتيات الصغيرات، وشتمتني معظم النساء، ورفض أبي أن يوجه لي الحديث أشهراً عدة.

أنا : أما أنا فقد علمت أني غدوت أسيرك. وكنت أشعر حين أراك، أني أتمغنط، وأني لا أستطيع الابتعاد عنك.

هي : كنت طفلاً صغيراً.

أنا : كان حبي يفيض عن عمري، ويليق بعمرك.

هي : ومن قال أني أرغب في نبش هذه العاديات البالية والقديمة. **(تنهض بعنف، وتتجه نحو القمر.)** ابتعد قليلاً يا صديقي! **(ينطفئ القمر بضع لحظات. وحين يشعشع ضوءه من جديد، تكون قد بدّلت ثيابها، والتفت بإزارها الأبيض.)** اسمع.. ارمِ هذه الذكريات جانباً، وحاول أن تستقر في موتك.

أنا : لا أستطيع..

الشاهد : اعذريني يا سيدتي.. هذه المرة هو محقٌّ. إنه لن يستطيع أن يستقر في موته، قبل أن يجد التصنيف الذي يستحقه. سألناه عن القصة التي تملأ جوانحه حنيناً، فاختار قصتك. وبعد المداولات اتفقنا أن تكون هذه القصة بالذات مادة تصنيفه بين الموتى.]

زاد إحساسي بحموضة التفاح في فمي، وزادت أيضاً تشنجات معدتي. وكانت العجوز لا تكاد تهدأ فترة قصيرة من الوقت، حتى تعود إلى هذيانها المفكك. وحاولت أن أتخيل صوراً جميلة، ولكن مخيلتي كانت قاتمة. وشعرت أني مربوط إلى ذلك المسرح الجنائزي، الذي أقمته بشيء من الخفة وعدم التبصر. وكنت أنوي أن أهدم المسرح، وأبتعد عن ذلك السطح، حين سمعتها تسأل..

[هي : أتشعر فعلاً أن تلك القصة الصبيانية هي التي تملأ جوانحك حنيناً؟

أنا : نعم.. وهذه القصة ليست صبيانية لأنها الأصل، وما جاء

بعدها إلا التكرار والتشابه.

هي : لا أدري عمّا تبحث، أو ماذا تنوي أن تطلب مني! لكن أقول لك وبصراحة، ليس لدي ما أقدمه لك.

أنا : لن أطلب منك إلا أن تساعديني على رواية الحكاية. وما أبحث عنه لا يوجد إلا في الدهاليز الغامضة لهذه النفس، التي ودَّعت الحياة، ولم تجد راحة الموت بعد.

الشاهد : **(يضع على مقدمة المسرح مصباحاً كبيراً، يكاد يناظر القمر المعلق في الجو. ضوءه قوي توشحه مسحة أرجوانية.)** مقدمات.. مقدمات.. مقدمات.. كله غثٌّ وركيك. تتحدثان وكأنكما ترشفان القهوة في لقاء منزلي عابر. كفى مقدمات، وحاول أن تروي حكايتك بلغة تختلف عن اليومي والمستهلك.

أنا : قلت لك مراراً إني لا أحب الفخامة، وإني أحاول أن أروي الحكاية بأبسط الكلمات، وأقلها غموضاً.

الشاهد : ولكن ألا تعلم أن الموت بحد ذاته فخامة!

أنا : حتى في الموت تريد أن تلملم المظاهر والأكاذيب، كي تنسّق منها باقة من الفخامة.

الشاهد : ماذا تعني؟ لو قارنَّا بين ما أنجزه كلانا، لبدوتَ إنساناً بائساً وفاشلاً، عَبَرَ الدنيا كظلٍ يرتعش.

أنا : سيأتي دورك، وستعرف تصنيفك في عالم الموتى.

هي : **(وهي تنهض، وترتفع على طرفي قدميها نحو القمر الذي يبدو، وكأنه يتدلّى قليلاً كي يلاقيها.)** قمري يا قمري.. أخبر أباك يا قمري.. وكل أبٍ يخبر أباه يا قمري.. حتى تصل ضراعتي إليه يا قمري.. إن باب الموت مخلع، ويحتاج إلى تصليح.. والحارس الألفي أعماه الملل، وصار بحاجة إلى تبديل.. لقد تفشى بين القادمين الجدد تهريب البضائع

المسمومة، التي تطفح بها الحياة الدنيا. إنهم يحملون بين أكفانهم الكراهية والحسد والتنافس والغضب، حتى بات الموت مهدداً بالتلوث والفساد. قمري يا قمري.. قل لأبيك يا قمري.. وكل أب يخبر أباه يا قمري.. **(تمضي مبتعدة)**

أنا : **(ناهضاً وبلهفة)** أين تمضين؟ أرجوكِ.. كوني كريمة وساعديني!

الشاهد : أيتها السيدة.. تزعمين أن الموت جعلكِ نقية كاللؤلؤة، فكيف ترفضين مساعدة رجل يتوقف عليك اكتمال مصيره.

هي : **(ملتفتة)** ما زالت تنبعث منكم رائحة الدنيا ووخمها.

أنا : كيف أتخلص من الوخم إن أدرتِ ظهركِ لي!

الشاهد : وأنا أعد ألا أتدخل بعد الآن، إلا إذا كانت هناك شهادة لا يجوز أن تُكتم.

أنا : أمضيت الخريف والشتاء والربيع أكتب إليكِ. **(تتوقف عن السير)** ورغم تغيّر الفصول، وتبدُّل المناخات فقد كنت محموماً دائماً. منعني الطبيب عن تناول البيض والحليب مؤكداً أن كبدي مريض. خطر لي مرة أن أخبره أنه يشخص المرض في العضو الخطأ. لكن خشيت أن يغضب، ويحرمني من التقرير الطبي، الذي كنت أحتاجه، لكي أبرر غيابي الطويل والمتكرر عن المدرسة. كانت سنة غريبة ملأت خلالها سبعة دفاتر، آملاً أن أسكب ما يعتمل في داخلي من وجد وشغف وذهول. وحين كنت أعيد قراءة الدفاتر السبعة، كنت أشعر أن الكلمات قش يابس، وطنين أجوف. في النهاية نحيت الدفاتر، وأمضيت نهاراً وليلة كاملة، شربت خلالها سبعة أباريق من الشاي الأسود، ودخنت ثلاثة علب من «الطاتلي سرت» الغليظة. واستطعت في نهايتها أن أكتب سبع صفحات، اعتقدتُ أني ضمّنتها رعشات قلبي، وذلك

السحر الذي يسيطر علي، ويجعل الزمن مزيجاً من اللهفة والخيبة، وتناوباً بين اليأس والرجاء. طويت أوراقي، وغسلت وجهي ثم ركبت سيارة، وذهبت إلى القرية. ذهبت إلى بيتها، فوجدتها تساعد أمها في جرش العدس. رحبتا بي كثيراً. قالت لي: «اجلس وتفرج على جرش العدس.» قلت: «هل تظنين أني قادم من المهجر.» فأجابت على الفور: «لا.. ولكن الكتب لم تترك لكم وقتاً، كي تراقبوا أعمالنا ومشاغلنا.» قالت الأم: «أتريدينهم أن يجرشوا العدس، ألا يكفيهم العلم وتعبه!»

هي : ماذا تحاول؟ أتريد أن تخادعنا، وأن تعيش الحكاية مرة أخرى بتفاصيلها وامتدادها الزمني؟ نحن الآن وراء الزمن، ووقائع ذلك العالم تبدو صغيرة ومتلاحقة، كأنها تتراكض لاهثة. **(لهجة معدنية باردة)** خرجت أمي لتحضر شيئاً ما. أخرجتَ الرسالة، وناولتني إياها، ثم خرجتَ مسرعاً وكأن أحداً ما يطاردك.

أنا : نعم.. كنت أشعر بالخجل، وأخاف أن ترفضي الرسالة.

هي : كان يصغرني بست سنوات، وكان أفضل أصدقاء أخي هادي. كانت بيننا قرابة ومودة. قرأت الرسالة، ولم أحس أي شيء. لا دهشة.. ولا تعاطف.. ولا نفور. وأخبرت هادي عن الرسالة، فأجابني.. تصرّفي بالطريقة التي تجدينها ملائمة.

أنا : بعد أن أعطيتها الرسالة أحسست خفة عجيبة، واستدركت السنة الدراسية دون عناء. وحين عدت إلى القرية بعد انتهاء الامتحان، زرتها مشتاقاً وملهوفاً ومرتبكاً.

هي : قلت له.. يجب ألا نجعل تلك النزوة العابرة تفسد المودة بيننا.

أنا : من قال إنها نزوة!

هي : في حالتنا لا يمكن أن يكون هذا الحب جاداً.

أنا : ليس هناك في هذه الدنيا، ما هو جاد أكثر منه.

هي : إنك تصعّب الأمور علي.

أنا : ولمَ.! لا أحد يستطيع أن يكرهك على حبي. ولكن لا أحد أيضاً يستطيع أن يمنعني من حبك.

(فجأة تعلو أصوات مزامير غريبة وجشّاء. تعلو همهمة بين الحشد الجالس. تتحول الهمهمة إلى احتجاج. ينهض واحد.)

صوت١ : إلامَ ننتظر.

صوت٢ : نحن أيضاً نريد الدخول.

صوت٣ : ومعرفة تصنيفنا في عالم الموتى.

صوت٤ : يسّروا المرور!

الشاهد : هدوءاً.. هدوءاً.. وأنا مستعجل مثلكم. ولكن لم يبقَ الكثير. **(يضيء المصباح في وجهي)** وأنت.. ينبغي أن تفرغ من هذه الملحمة، قبل أن تحين نوبة المزامير التالية.

أنا : ولكنها ليست قصة حب عادية.

هي : ليتك لا تتشدق.

أنا : قولي ما تشائين، ولكن لن أنسى ذلك العام ما حييت. كنت أعيش أياماً ملونة، لم أعرف مثلها من قبل. كنت أحلم، وأتعذب، وأدلل جموح رغباتي، وأوقد مزيداً من النار في أعطافي، وأكتب لك الرسالة تلو الأخرى. لم أعرف بهجة ولا ألماً يشبهان بهجة وألم تلك الأيام.

هي : وضعفت.. كنت لا أعرف كيف أفهم هذه العاطفة. هل هي كبت مراهق أم فورة حب صادقة! وغضبت من نفسي لأني لم أعد أستغني عن رسائله، ولم أعد أستطيع الامتناع عن التفكير به. وبدأت أغدو مضحكة، وأتصرف بصورة حمقاء. كان يأتي إلى القرية لكي يراني. وحين نلتقي كان

لساني يسرف في الرفض، بينما تبحث يدي عن أصابعه. تمسكها، وتبدأ بمداعبتها. تضعها على خدي، على عنقي، على صدري. آه.. أيتها الصديقات! تيقنت أني عاشقة. ولئن كذّبني لساني، فضحتني يدي واندفاعات جسدي.

أنا : وكنت أحتار، وأنوس بين جفاء كلماتها، والدفء الذي ينبعث من يدها. نوسان يشبه ذلك التناوب اللذيذ بين السكر والصحو. يا الله! ولكن التفاصيل.. كل ذلك السحر والجمال.. كل ذلك الارتباك اللذيذ، والدوار الشهواني.. إنما يكمن في التفاصيل.

الشاهد : لا تفاصيل بعد الآن. قد تجاوزت الحد، وأخذت بعضاً من زمني وزمن الآخرين.

أنا : ألم تسمعها! هنا لا يوجد زمن.

الشاهد : ولكن هنا يوجد دور. إن الانتظار على العتبة مرهق. ويزيد القادم قلقاً وضعفاً.

أنا : أعرف أنك تستعجل وصولي إلى لحظة ذلي. ولكن أنت الذي تعودت أن تتصرف دائماً مثل مايسترو، حتى ولو لم يكن هناك مجرد عازف واحد. أتظن أن تصنيفك سيكون أفضل؟

الشاهد : اهتم بنفسك، وأسرع!

هي : آه.. يا صديقات.. مسّني العشق، وأشعل ناره في جوفي. ولكني لم أستسلم، وحاولت أن أقاوم.

أنا : يوم عودتي إلى القرية بعد نهاية السنة الدراسية، طلبتْ أن نلتقي. في بستان عمتي الشهير بمشمشه اللذيذ التقينا. قطفت حباتٍ من المشمش الأخضر والحامض، وقدمتها لها.

هي : لا أريد.. طلبت أن أراك وفي بداية العطلة، كي نضع حداً لهذه المهزلة.

أنا : إذا كان ما بيننا مهزلة، فإن إنهاءه لا يتطلب جهداً فعلياً.

هي : ما حدث بيننا سخيف.. سخيف جداً.. وينبغي أن ننهيه فوراً.

أنا : وماذا تطلبين مني؟

هي : أن تساعدني على تنفيذ هذا القرار.

أنا : أرهقني ترددك ودلالك. هذا قرارك، وعليك أن تنفذيه وحدك.

هي : وهذا ما سأفعله. منذ الآن أنت غريب عني. إني لا أعرفك. ولن تستطيع بعد اليوم، أن تغريني بقراءة رسائلك وسماع اعترافاتك.

أنا : إني لا أفهم. هل أنت جادة فيما تقولين؟

هي : بل شديدة الجدية.. إني لا أعرفك. وهنا سأدفن هذه القصة التي ورطتنا بها. **(يتركها، ويمضي. تتابعه بنظرات قلقة، ثم تهرع، وتمسكه بذراعه.)** أين تمضي؟

أنا : لن تطلبي مني أن أتفرج عليكِ، وأنت تدفنين مشاعري ونبضات دمي.

هي : ستزعل قليلاً، ولكن ستكتشف أني محقة. كل ما في وضعنا يعارض هذا الحب، ويحكم عليه بالاستحالة.

أنا : يبدو أنك حسمت الأمور قبل لقائنا بوقت طويل.

هي : إني أحاول أن أحسمها. اسمع.. آه.. ما أتعس حالي! **(تغص بالدمع، فتخفي وجهها في شجرة المشمش، وتقطف بضع ثمرات خضراء. تمسح عينيها، وتجلس على الأرض.)** تعال واجلس قربي. **(يأتي ويجلس قربها. تناوله ثمرة مشمش، بعد أن تقضم نصفها، فيقضم نصفها الآخر.)** ما أغباني! كنت أنتظر عودتك كالولد الذي ينتظر يوم العيد. ولكن لا أخفي عليك.. إن وضعي مع نفسي وفي البيت أيضاً يضغط علي.

أنا : سأسألك بودٍّ وحب.. هل يريحك أن ننسى هذه القصة؟

هي : لن أجيبك قبل أن نقضي معاً يوماً طويلاً.. طويلاً.. في طرطوس، أو نبع بانياس، أو ما تختاره من الأمكنة.

أنا : ومتى سيحين هذا العيد الكبير؟

هي : ثاني أيام عيد الأضحى.

أنا : إنه قريب جداً!

هي : نعم.. إنه قريب جداً.

(تنهض هي، وتتجه صوب القمر.)

هي : حان الوقت كي تساعدنني يا صديقات.

(تتزحلق على أشعة القمر، التي تغدو شبيهة بالحبال، ثلاث نساء يلتففن بإزاراتٍ كحلية غامقة، ويضعن قلنسواتٍ شبيهة بالمحارات، ويقفن إلى جوارها.)

النساء معاً : ها نحن يا صديقة!

هي : أهلاً بهية وفاطمة ورقيَّة. آه.. يا صديقات هذا هو الذي أشعل في قلبي نار الحب، وهذا..

بهية : لا تتابعي.. ألم نأتِ كي نسندك. سنستجوب، ونعرف.

فاطمة : إننا نصغي يا هذا.. اروِ لنا حكاية ذلك اليوم الطويل الطويل.

هي : والجميل.. الجميل.

أنا : لنتصور يوماً، كل لحظة فيه تنبثق محمَّلة بانفعالٍ مذهلٍ وجديد. كم أحتاج من الوقت، كي أصف تلك الكثرة الهائلة من الانفعالات المذهلة والجديدة. ما إن نزلنا من السيارة، ولامست أقدامنا إسفلت الشارع، حتى صارت هذه الشوارع والأرصفة وأشجار الزلزلخت، هذه الطرطوس البحرية البسيطة المتعرقة.. مُلكنا. كل ذلك بدا، وكأنه كان ينتظرنا كي نمتلكه، ونجددَّ معه أواصر الإلفة والمودة. وكنا نتحدث، وكنا نضحك، وكنا عاشقين، وكنا صديقين، وكنا

في ترتيب نادر متواقتين مع الزمن في تقدمه أثناء نهار طويل وجميل وحار. دخلنا محل «لطش» كي نتناول البوظة. ملأنا المحل صخباً ومرحاً. وتناولنا بألسنة لاذعة تلك النساء المحافظات، اللواتي اختفين وراء ستارة تنصّف القاعة. بعد البوظة ذهبنا إلى سينما «الأمير»، كي نحجز بطاقتين من أجل فيلم «لا أنام»، وفوجئنا هناك أن كل الحفلات النهارية مخصَّصة للنساء. فعدنا كي نحضر الفيلم الذي يعرض في سينما «شهرذاد».

الشاهد : لا أدري ماذا كنت أفعل هناك.! رأيتهما بالصدفة وهما يخرجان من سينما «الأمير.» **(يخرج من جيبه ورقة)**. وكتبت له هذه الرسالة.. «عزيزي كنت بالفعل من الغاضبين عليك لانقطاع رسائلك المتواصل رغم إلحاحي. وزاد غضبي حين انتظرتك مساءً، وحتى الساعة الثامنة والنصف، ولم تأتِ حسب ما أخبرتني مع أحد أقربائك. ولكني عرفت السبب وقدرت الظروف، عندما رأيتك صدفة مع حسناء شقراء وجودية الشكل خارجين من سينما «الأمير». ولم ترني أنت لأنك لم تصدفني مباشرة وجهاً لوجه. ولم أرغب في إزعاجكما لعلمي الأكيد من الانزعاج المترتب من حضوري في تلك اللحظة.» الآن أكتفي بقراءة هذا المقطع من الرسالة، ولكن عمّا قليل ستفهمون دلالته، والسبب الذي حداني لقراءته.]

وفجأة صاحت العجوز:

ـ يا زينة الحقيني! يا زينة عجّلي ما أقدر أمسكها.!

وجاءت الممرضة تسأل ماذا هناك. وكانت العجوز قد عملتها في الفراش.

فاحت روائح تسربت إلى غرفتي والغرف المجاورة. ووسط الضجة والشتائم، تعاونت الممرضتان على تغيير الشراشف، وتنظيفها. وكانت لا تكفُّ عن التأوه والشكوى. وحين فرغت الممرضتان من عملهما، وطلبا منها أن تنام، عادت تكرر عبارتها الهذيانية «ذابت.؟ لا.. يمكن ما ذابت.»

[هي : واخترنا مقعدين منزويين في بلكون السينما. ما كنت أستطيع أن أخفي ما يتأجج في أحشائي. كنت قد رتبت أن أنشر حبي في الهواء وعلى الملأ. ثم أطويه، وأدفنه في نهاية ذلك اليوم الطويل. كان يجلس إلى جواري مثل طفل مبهور ومتعب، وكان علي أن أمسكه، وأن أجرَّه إلى بستاني. آه يا صديقات.. مع لزوجة العرق، ورقَّة يده عرفت أني مريضة حباً، وأن اليوم هو فرصتي الأخيرة، كي أداوي مرضي وأشفى منه.

أنا : كانت السينما تغصُّ بالمتفرجين، وكان الفيلم الذي يُعرض هو «بور سعيد». وحين أمسكت يدي، ووضعتها على فخذها، غمرتني حالة من التيه النشوان، تعكِّرها رهبة خفية. كانت وحدها في السينما، وخلال ساعتين من اللزوجة والملامسة وغلغلة الأصابع وإيقاع النشيد التاريخي «الله أكبر»، كنت أحس أني أتلاشى في غيابة دوار لذيذ، ومحفوف بالمخاطر. لم تكن هناك أية مشاعر جنسية، بل سيالات من الخدر والزهو والقلق تكيّف أحاسيسي، وتجمح بي نحو فضاء خيالي، يخفي زحام الواقع وحرَّه. ولكن قبل النهاية وتحت وطأة الانفعالات القوية، والجوع، ورطوبة الحر، داهمني تعب شديد، ووددت لو أسحب يدي المتعرقة من لزوجة يدها.

بهية : هل كفتك ساعتان كي تشعر بالملل؟

أنا : لا.. لا تخطئن فهمي.. كنت متعباً، وكانت لزوجة يدي تضايقني.

هي : آه يا صديقات.. اسمعن، وسجلن!

فاطمة : إننا نفعل.

أنا : لا تخطئن فهمي. في تلك السينما، وفي ذلك الفيلم أيقنت، وأكثر من أي وقت مضى، أن هذه المرأة قدري.

بهية : طيب.. طيب.. لنتابع.

هي : خرجنا من السينما مغسولين بالعرق. ذهبنا إلى مطعم «عايدة» وتناولنا الغداء. في البداية كان مجهد القسمات وصامتاً، ولم يستعد شيئاً من حيويته وطلاقة لسانه، إلا بعد أن كرع زجاجة من البيرة. بعد البيرة أخذ يمطرني بأحلامه، والمشاريع التي يتصورها لنا. تأخرنا في المطعم حتى تخفَّ حدة الحر، ثم اقترحت أن نتمشى على شاطئ البحر.

أنا : كنت أعلم أن شيئاً ما يقترب.

هي : بدا الشاطئ غريباً. كان الرمل أبيض ونظيفاً. قلت له كأني لم أرَ هذا الشاطئ من قبل.

أنا : اليوم كل شيء جديد ومختلف. هل نجلس؟

هي : (وهي تجلس) ما أنظف الرمل وما أجمل بياضه! لم أرَ البحر هادئاً وفاتناً كما بدا ذلك اليوم. كان جماله يوقظ، ويؤجج ما في النفس من توقٍ ورغبة ووجد. ماذا تحسّ حين تنظر إلى هذا المرج البحري المذهل؟

أنا : تصوري أننا نسافر على سطح إحدى البواخر العملاقة، وأننا نمخر المحيطات، ونمضي إلى بلادٍ جميلة وغريبة. نبدأ فيها عمراً جديداً، وفرحاً يتزايد كلما تقدمنا في العمر.

هي : لا أحب السفر، ولا أتمنى أن تتحدث عنه. هل أغنّي لك؟

أنا : ليتك تفعلين..

(بصوت عذب ورقيق، تغني أغنية من تراث غنائي قديم، يتسلسل أغنية بعد أخرى دون تنافر أو نشاز. خلال غنائها يطوق كتفيها بذراعه، ويداعب عنقها، وشحمة أذنها. وبين الفينة والفينة، يميل عليها، ويقبل خدها.)

أنا : ذلك العطر! الآن تذكرت.. كان عطرها القوي الذي توشيه رائحة عرق خفيفة.

هي : **(تتوقف عن الغناء، وترفع يده عن كتفيها.)** انظر.. ما هذه السفن التي تخرج من أرواد؟

أنا : إنها سفن شراعية بيضاء لعلها تمضي إلى الصيد.

(يظهر رجل متقدم في السن، يرتدي قبعة من القش وبنطلوناً قصيراً، ويقف إلى جوارهما ناظراً إلى البحر والسفن الشراعية باهتمام ومتعة.)

الرجل : **(بلهجة خبيرة ولا مبالية)** نعم.. هذه سفن شراعية ومطهرة بالبياض.. الهيكل و الأشرعة وثياب البحارة والحبال ومختلف الأدوات التي تستخدم على السفينة كل ذلك أبيض. وهذه السفن لا تخرج للصيد، بل هي موكب مقدس يرافق الشمس في انحدارها نحو ظلمة الليل.

هي : انظر.. انظر.. أرى حبالاً بيضاء ترتفع نحو الشمس.

الرجل : نعم.. إنهم يعاملونها كالعروس، ويحملونها وسط الأهازيج وإيقاعات الصنوج، راجين أن تحميهم من عواصف الشتاء، وزمجرة الرياح. هل تسمعان دقات الصنوج والأهازيج؟

هي : إني أسمع مع زفير البحر أنغاماً حزينة.

أنا : ولكن من هذا؟

هي : لا أدري! انظر.. انظر.. تبدو الشمس وكأنها تجلس على هودج، والسفن الشراعية تجرها مسرعة إلى مخدعها الليلي.

الرجل : حقاً إنها تنزلق بسرعة.
هي : غاب نصفها في الماء.
الرجل : غابت كلها في الماء.
(نرى السفن في البعيد تطوي أشرعتها، وترفع خرقاً سوداء على صواريها)
الرجل : ومن شروط الموكب، أن تكون عودة السفن محفوفة بالغناء والترانيم الجنائزية.
(يردد ترنيمة قصيرة، ثم يرفع قبعته، ويختفي.)
هي : غابت الشمس، وانتهى نهارنا الطويل.. الطويل.
أنا : من كان هنا؟ وماذا حدث؟
هي : لم يحدث شيء. غنيت لك حتى غابت الشمس، وانتهى يومنا.
أنا : هل أنت جادة؟
هي : نعم.. نعم.. نعم.. وأرجوك أن تفهمني.
أنا : اطمئني.. إني أفهمك. ولن أزعجك بعد الآن. ولكن أريد أن تعرفي، أنك المرأة التي سيرافقني ظلها ما حييت.
هي : وكنا قد أصبحنا عند «المجرور الإسمنتي» الذي يحمل قاذورات طرطوس إلى البحر. والتفت إليه يا صديقات.! وطوّقت رقبته بذراعيّ، وانغمرت في وجهه أقبله، وأعضّه، ولا أدري ماذا أيضاً.. وكنت أتمتم.. «هذا هو الوداع.. هذا هو الوداع..»
أنا : غدا كل شيء لزجاً ومنهكاً. نحن والشوارع وهذه المدينة الفاترة والزحام المتجمع أمام سينما «الأمير»، حيث يُعرض فيلم «لا أنام». التقينا شباباً ونساءً من الضيعة، حضرنا الفيلم معاً، ثم دبَّرنا سيارة جيب نقلتنا إلى القرية.
بهية : وقاومت صديقتنا أياماً كادت أن تجن فيها.
هي : لم أكن أعلم أني مريضة إلى هذا الحد.

بهية : وقررت أن تستسلم للداء الذي يُعييها. أرسلت إليه وطلبت منه أن يزورها.

فاطمة : كيف استقبلتَ دعوتها؟

أنا : ملأ الفرح جوانحي.

بهية : لم يكن الفرح أول مشاعرك.

أنا : ماذا تعنين؟

بهية : هنا لا يستطيع أحد أن يكذب.

أنا : ربما شعرت بالزهو..

فاطمة : والامتلاء..

بهية : والأهمية الكبيرة.

رقية : وقليل من الفرح.

أنا : لا أدري.. ربما جالت هذه المشاعر كلها في داخلي. لكن أذكر جيداً توثب الفرح في داخلي، وأنا أمضي للقائها.

رقية : فماذا حدث عندما التقيتها؟

هي : رتبت الأمور لأكون وحيدة..

رقية : ألم نأتِ لكي نوفر عليك طعم الرماد! ابتعدي عن الزنخ.. ودعينا نروي بقية الحكاية.

فاطمة : رَتبَتْ الأمور لتكون وحيدة في البيت..

هي : وكان علي دائماً أن أكذب وأخادع، كي أرتب خلواتنا..

بهية : تمددتْ على الديوان، وانتظرتْ. حين جاء، قالت له.. تعال واجلس إلى جانبي. مسح بيده على وجهها، وسألها.. كيف أفهم دعوتكِ؟

رقية : أجابتْ وهي تضغط يده.. دعنا من الكلمات وألعابها..

فاطمة : ولكنه ألحَّ على السؤال، وصار يفتح أدراج الكلام. كان يريد أن ينال بالكلمات ما هو متاح له، وممدد أمامه..

رقية : واعترفتْ أنها تحبه. واعترفتْ أنها لا تستطيع الاستغناء عنه.

واعترفتْ أنها له..

بهية : وعانقها. كان مبهوراً. أغرقها بالأوصاف البديعة، والنداءات المسكرة..

فاطمة : ولكن عناقه كان فاتراً..

رقية : بدت القبلة باردة، والمداعبة حركة لاهية، والاحتضان مفتعلاً ورخواً..

أنا : (صائحاً) كنت متعباً، واستسلامها المفاجئ أربكني، واستلّ قواي..

بهية : بعد اعترافها، اطمأنت عواطفك القلقة، وعرفت أن كل ما فات بعذاباته وتردداته، ستطويه اللذات التي تنتظركما، فماذا فعلت؟

فاطمة : ماذا فعلت؟

رقية : ماذا فعلت؟

أنا : خلال سنتين طويلتين أحببتها حباً شبيهاً بالعبادة. وعانيت آلام الصدّ، وهيجانات الشوق، ومرارات الغيرة. وكنت أحاول أن أسكب فرادة مشاعري وغزارتها في كلمات، فتبدو الكلمات وكأنها سلسلة من الخيانات. ملأتُ ثلاثة عشر دفتراً، وظللت أحتفظ بها حتى.. وقبل مجيئي قرأتها، وعرفت كم هو جهد ضائع، أن يحاول المرء كتابة هذا الفيض الذي يتدفق في داخله. إنه تدفق وجموح، لا تتسع لهما الكلمات والعبارات الجاهزة.

فاطمة : هذه الخطبة لن تعفيك من الإجابة.

رقية : وما دمت قد احتفظت بالدفاتر الثلاثة عشر حتى.. فإني أخشى أن يكون ما أحببته بالفعل، هو ما حوته هذه الدفاتر من وعود أدبية.

أنا : لا.. لم تكن ذريعة، بل غاية بذاتها. ولن يفهمني أحد لو

قلت.. لقد أثّرتْ في حياتي أكثر من أي امرأة أخرى، لأنني معها ذقت أول نوسانٍ مدمر بين أقصى اللهفة، وأقصى الخيبة.

بهية : حين كفَّت عن المقاومة، وأودعته رعشات قلبها..

رقية : حين كفَّت عن المقاومة، واستسلم جسدها الذي أنضجته الأحلام والسنوات..

بهية : حين كفَّت عن المقاومة، وتخيلت أنهما سيعدوان في زمن لا يخصُّ سواهما. زمنٍ تتوالى لحظاته مع فوران الحب، وتجدد الشوق، وغيبوبة اللذّة..

فاطمة : حين كفَّت عن المقاومة، فتَّش عن المشاعر التي سكبها في ثلاثة عشر دفتراً، فما وجد شيئاً..

بهية : كل المشاعر بخْ..

رقية : الحب الذي تفسده الكلمات والآهات والتوسلات، كل هذا بخْ..

فاطمة : حين كفَّت عن المقاومة، وتوالت بضعة لقاءات، بدأ السأم يطفئ ملامحه، ويُوهن حيويته..

الشاهد : ولكن.. حين قرأ رسالتي، التي أُبدي فيها إعجاباً برفيقته الوجودية والجميلة، اختفى ملله، وجاء إلى لقائها متلهفاً ومفعماً بالرغبة. كل ما كان يشغله، هو أن يبدو في عيون الآخرين ناجحاً ومهماً.

أنا : كل هذا صحيح. ومهما قسوتم، فإنكم لن تسببوا لي من الشقاء ما سببته لنفسي، وما عشته طوال عمري. نعم.. كل هذا صحيح. حين قررتْ أن تكفَّ عن المقاومة، وحين بدأنا نلتقي خلسة في تلك الغرفة العلوية، بدأت أكتشف وسط الذهول، أنها فتاة أخرى. أنها وجه آخر. جسد آخر. تفاصيل أخرى.

فاطمة : بقيت سنتين تحملق بها، وفي رسائلك كنت تنتشي، وتحلّق مع شهواتك، وأنت تصف جسدها خلية خلية، وتتغزل به

متلاعباً بالصور والتشبيهات. وفتاة كانت جميلة تغدو مع العشق أكثر تفتحاً وجمالاً!

أنا : كل هذا صحيح. ولكن ماذا أفعل! فجأة وجدت شعرها خشناً كالليف، وفمها كبيراً تتراكب فيه الأسنان بعضها فوق بعض، وحول حلمتي ثدييها شعر، وجسدها كله يغطيه زغب.. وملأني نفور. وكانت عناقاتنا بائسة، ولذتها هزيلة.

هي : وعرفت أني أفقده، فازددت تعلقاً به. وعرفت أن جسدي لا يغويه، فكرهت جسدي، وأيقنت أني بشعة، ولا يمكن أن يحبني إلا أعمى.

بهية : أكنت تعلم أنك تؤذيها إلى هذا الحد؟

(لا يجيب.)

رقية : أكنت تعلم أنك تؤذيها إلى هذا الحد؟

أنا : نعم.. كنت أعلم. كانت تتشبث بي كأنها تريد أن تسجنني. أحياناً كنت أفقد أعصابي، وأتصرف بفظاظة.

فاطمة : كيف ينمحي الحب الحقيقي حين يكتمل؟ أخبرنا.. أكنت تحب صورة؟

أنا : لا أدري أهي صورة أم حلم.! في داخلي فجوة. في داخلي توق غامض. لا.. لا أفتش عن شفقة. هذا ما لدي، ولن أبالي أينما كان تصنيفي.

فاطمة : إنك طفل. إنك طفل بائس، فاتته كل اللذات، لأنه لم يعرف كيف يكسر حاضنته، ويحب. كنت أعمل في الأرض منذ الفجر حتى غروب الشمس، وفي نهاية النهار كان يوافيني الذي أحب، فيجرني إلى عشنا بين أعواد قصب السكر. في البداية كنت أشعر بالخجل من رائحة جسدي، الذي حمّضه العرق وتراكم الأوساخ. ولكن الذي كنت أحبه ويحبني، كان يسخر مني، ويرشف بلذة بقايا العرق من سرتي وتحت

إبطي. وكان يتمتم.. إن أية رائحة تنبعث من هذا الجسد، هي أفضل من كل عطور الدنيا. وكانت تتموج رائحة عرقنا مع خشخشة قصب السكر الذي يتخلله هواء البحر، وشهيق اللذة في عروقنا، فأشعر أننا أرض وشجر وثمار.

رقية: وكان الذي أحببته وأحبني يعلم أني مريضة بالسل، وأني محكومة بموتٍ غير بعيد. كنت أرتعش كقصبة في الريح حين يقترب مني، وكان يرعبني في الوقت نفسه، أن أنقل إليه مرضي. ولكنه نحّى وساوسي بغضب، وقال.. ما الحب إن لم نتقاسم مصيراً واحداً.! وكان ينهمر علي كأنه مطر دافئ، أو غطاء من حرير وحنان. وكانت كل مضاجعة تبدو وكأنها بدايتنا الأولى، وأن الأيام طويلة أمامنا. مرة داهمني السعال ونحن في غمرة الحب. امتلأ فمي بالدم، فأخرج منديلاً وأمرني أن أبصق. مسح شفتيَّ ثم أدنى وجهه من وجهي، وقبّلني على فمي. ارتعدت. ارتعشت. وللحظة شعرت أن الموت مستحيل.

بهية : أما أنا فقد كان الذي أحبه ويحبني لا يرى فيَّ عيباً. كان واضحاً أن قسمات وجهي متنافرة، وتخلو من الجمال. و كان نهداي صغيرين، ولم يكن في ردفيَّ هذا الاكتناز الذي يحبه الرجال. ومع هذا فقد كان يتناولني ظهراً وبطناً، ويُوقظ جسدي خلية خلية، ويُمطر كل أجزائي وأعضائي زهواً ورغبة ومتعة. أنساني أني بشعة، وملأ حياتي رضىً وبهجة.

هي : وعرفت أني أفقده، فازددت تعلقاً به. وعرفت أن جسدي لا يغويه، فكرهت جسدي، وأيقنت أني بشعة، ولا يمكن أن يحبني إلا أعمى.

(ينزلق على أحد الحبال المعلقة بالقمر الرجل الكبير، الذي

يرتدي قبعة من القش وبنطلوناً قصيراً، فيقف إلى جوارها مطوقاً كتفها بذراعه.)

فاطمة : كانت يائسة ومثقلة بالمرارة.

بهية : وحين هجرها اشتعلت غضباً وقهراً ووجعاً.

هي : وكنت ما أزال متعلقة به.

الرجل : وتقدمت إليها، وقلت.. لا أحب الكذب، وليس لديَ ما أتبجح به أمامكِ. إني متوسط الحال في كل شيء، فهل تتزوجينني؟

هي : كنت محطمة، وكنت متيقنة أني بشعة، وأن الشباب لا يقتربون مني إلا من أجل لذة عابرة. حدقت فيه ملياً، ثم قلت.. إذا وافق أهلي، فأنا أيضاً موافقة.

الرجل : وتزوجنا.

هي : ملأني حباً وجمالاً. وبعد فترة قصيرة انقلب نفوري من جسدي إعجاباً وغبطة. جعلني أحب الزغب على فخذي وحول سرتي. جعلني أحب كل تفاصيلي، والممارسات التي كانت تبدو لي رخيصة وعامية.

الرجل : كنت أعيش في المهجر منذ سنوات عديدة. لم يبقَ لي في القرية بعد وفاة أبي وأمي وأخي الكبير في جائحة التفوئيد إلا بعض الأقارب البعيدين. كانت أحوالي مستورة، ولم يكن يخطر ببالي أن أعود إلى القرية، وليس لي فيها أهل ينتظرونني. ولكن ذات ليلة رأيت في منامي، أني أركب سفينة شراعية تعود بي إلى البلاد. وحين مالت الشمس نحو الغروب، اقترب مني بحار، وقال لي.. انظر هناك صبية على الشاطئ تنتظرك! سألت.. وما أدراك؟ فأجاب.. دع الأسئلة، واقفز إلى الماء. وقفزت من السفينة، فوجدت الماء ضحلاً لا يصل إلا إلى منتصف ساقي. وشعرت بالتوفيق لأني أرتدي

بنطلوناً قصيراً. فجأة وجدت نفسي في القرية، وسمعت غناءً على إيقاع الطبل والمزمار. ومرَّ ولد يركض وهو يخبر.. أركبوا العروس، والموكب يقترب. وهلّت الصبية في ثياب عرسها منتصبة على سرج حصانها، وحين وصلت إلى جواري توقف الحصان، وحرَن، فمدت يدها إلى رأسي، وخطفت قبعتي، فسار الحصان خبباً، وأنا أجري وراءه مسحوراً حتى استيقظت. بعد أيام كنت أركب الباخرة عائداً إلى القرية، وعندما رأيتها خفق قلبي كأني ولد صغير، وكادت قبعتي تطير عن رأسي. كانت السنوات القصيرة التي عشتها معها، هي ألمع نجاح في حياة، أمضيت معظمها في الكدّ والانتظار.

الشاهد : لماذا لا تسألوه ماذا كتب حين وافاه نبأ موتها؟!

هي : ماذا كتبت أيها الطفل الشقي؟

أنا : في البداية هزّتني لوعة لا توصف. أردت أن أعول.. أن أصرخ.. أن تتدفق دموعي كالسواقي..

هي : دعِ المقدمات، وقل ماذا كتبت!

أنا : لم أدرِ ماذا أفعل. مشيت في شوارع باريس ضائعاً وملتاعاً. وحين تعبت ساقاي، ارتميت على مقعد في مقهى يطل على حديقة «اللوكسمبورغ». كانت الشمس تجعل ذلك النهار النيساني فتنة. وفي النهارات الربيعية المشمسة كان فوران باريس يزداد حيوية وبهجة. تطلعت حولي، فوجدت الحياة نشيداً شاملاً، يشارك فيه حتى إسفلت الشوارع وكراسي المقاهي وإشارات المرور. فكتبت في دفتري.. «ومهما كانت لوعتي، فقد يسّر لي حظي أن أعيش يوماً بعدها. وهذا اليوم هو نعمة ينبغي أن أرشفها قطرة قطرة، وأن أمجّد الحظ الذي

أتاحها لي.» كان كل ما حولي يمجد الحياة، بينما ينأى الموت ليختفي في مقبرة بعيدة على حافة قرية صغيرة.

فاطمة : ما أتعسك إذا كنت تعرف حقاً مدى شقائك! لقد بدأ موتك حين كسى الملل وجهك، ولم تعرف كيف تحب.

بهية : أو حين عجزت عن الحب.

رقية : أو ..

فاطمة : **(مقاطعة)** لا تزيدي. يكفيه أنه عاش هذا العمر كله، وهو يحمل موته في داخله.

هي : أما نحن فقد تذوقنا متعة الارتواء. كمساكب الورد ارتوينا، وتفتحنا. وحين نادانا الموت، كان آخر ما حملته الذاكرة من عالم الأحياء الغبطة والرضا.

فاطمة : ولأننا حملنا الغبطة والرضا، وعرفنا ما في الارتواء من قداسة وانخطاف، اصطفانا القمر خلاناً وأصفياء.

(تعلو وشوشة إيقاعية مكبرة، تشبه وشوشة الماء في حوجلة الأوكسجين. على إيقاع الوشوشة ترمي كل واحدة إزارها، ويبدأن بالرقص عاريات. يزداد القمر تألقاً. ومع إيقاعية تنبعث من الوشوشة وموسيقا خفية، ينتظم رقصهن كما لو كنَّ يرقصن فوق كومة من حشيش الكيف. يتعالى الإيقاع تدريجياً حتى لا تكاد الأبصار تمسك بتلويات الأجساد إلا خطفاً. وفي لحظة الذروة، يبدأن بتسلق أشعة القمر واحدة بعد الأخرى، يتبعهن الرجل ذو القبعة، حتى يمتص ضوء القمر الباهر وجوه وأجساد الجميع.)

أنا : نعم.. كنت أعلم أني أحمل موتي في داخلي، لكن لو يعلمون كم عاقبت نفسي! وكم حاولت عبر المكابدة والتجربة أن أتعلم الحب، وأعرف سره!

(يتسلق الشاهد المرقاة، ويقترب منه.)

الشاهد : أتحقد علي؟

أنا : عرفت أنك الصديق القديم خير الله.

خيرالله : أنت تعلم.. لم يكن بوسعي أن أخفي شيئاً.

أنا : وما همَّ! ألم يحن الوقت كي نسترخي، ونقول. الآن متنا وشبعنا موتاً.

خيرالله : ما زال علي أن أعرف تصنيفي.

أنا : إذن أسرع! فهناك كثيرون ينتظرون دورهم.

خيرالله : انظر! إن القمر يغيب، والظلام يحلّ.

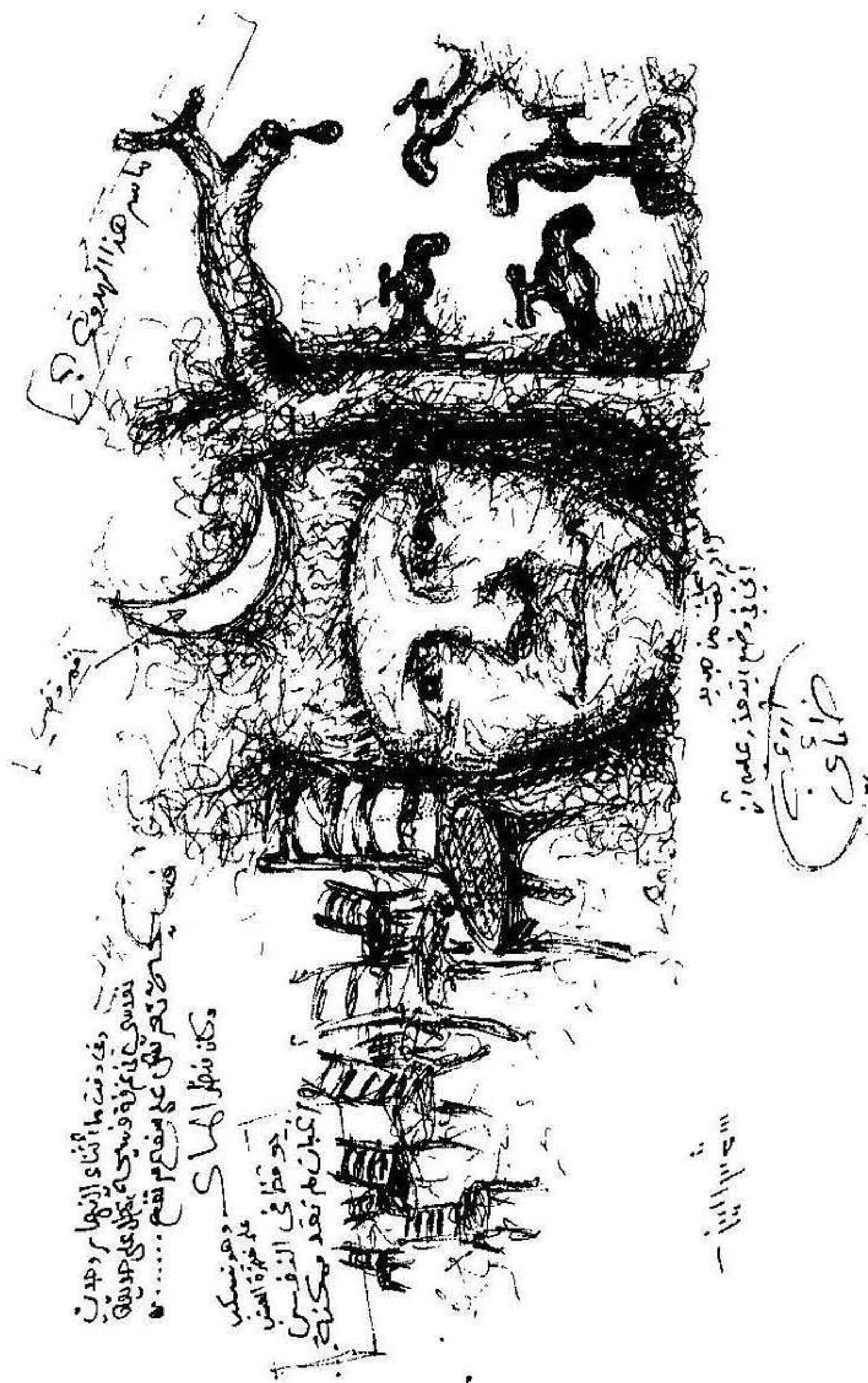
أنا : إن المراكب الشراعية البيضاء تجر القمر وسط موكب من غناء الماء والهواء وحناجر العشاق.

خيرالله : سيكون الظلام رهيباً.

أنا : هل بدأت التذمر؟ من الظلام جئنا، وإلى الظلام نعود، وتلك هي كل الحكاية.

(يختفي القمر، ويسقط ظلام أسود وكثيف.)]

تمددت في قبري، وحاولت أن أنام. ولكن كنت أسمع غناءً شجياً وغريباً. طلبت المرضة، وسألتها عن مصدر هذا الغناء. فأصابتها الدهشة، وقالت إنها لا تسمع أي غناء. وعرفت أني لم أترك المسرح تماماً، وأني عشت مرات عديدة هذه التجربة المثيرة، والتي يختلط فيها الأموات والأحياء ببساطة تكاد تكون هزلية. بدأ الطفل الذي شرب أدوية أبيه يبكي، وبدأت أمه تناغيه محاولة أن تهدئه، واكتشفت أن ضوءاً معفراً بدأ يتسلل من أعلى الجدار. طلع فجر آخر وما زال في فمي طعم حامض، وما زالت معدتي تتقلص كلما بلعت ريقي. رجوت المرضة أن تطلب من زوجتي المجيء بسرعة. جاءت وآثار النوم في عينيها. ومطموراً بالخجل والتقزز قضيت حاجتي في فراشي. ثم توالت كل الطقوس الروتينية التي تتوالى كل صباح. غسلتني ممرضتان، وبدّلتا القميص السماوي الطويل الذي لا يستر جسمي سواه. بعد ذلك توالت



زيارات الأطباء، وعادني بعض الزوار. يبدو أن ماري ألحت في السؤال. ويبدو أني أجبت، وأنا مغمض العينين.. «لا تخافي!».

في وقت ما أثناء النهار، وجدت نفسي في غرفة فسيحة، تطل على حديقة تعرّش على سفح مرتفع. مرجات مغطاة بأعشاب يانعة، تسقيها رشاشات دوارة. وكان منظر الماء وهو ينسكب على خضرة العشب، يوقظ في النفس رغبات لم تعد ممكنة. إني ظمآن.. وناولتني فايزة كأساً من الماء. كان الماء فاتراً والابتلاع مؤلماً، فأعدت الكأس، وأدركت من جديد أني في وضع، يتعذّر عليَّ فيه أن أروي ظمأي. ومن يدري! فقد يكون آخر ما يجمجم به اللسان.. «إني ظمآن».

ثمة هدوء مذهل. سألت فايزة:

ـ ما سر هذا الهدوء؟ أين المرضى والأطباء؟

أجابت فايزة هامسة:

ـ لقد ماتوا جميعاً.

كانت فايزة تلازمني، ولاحظت جيبين منتفخين تحت عينيها، فغضبت، ورجوتها أن تعتني بنفسها، وأن تنال حاجتها من الطعام والنوم. فأجابتني:

ـ لا تشغل بالك.. لقد حاولت كثيراً مع سعدى، ولكنها رفضت. لا تريد أن تأكل من طعام المستشفى، ولا تقبل أن نأتي لها بطعام من السوق.

وكدت أبكي. قلت لها:

ـ هل أنت متأكدة أنهم ماتوا؟!

فاقتربت من سريري، وقالت همساً:

ـ دخلت عيادة الدكتور «زياد عبد الهادي»، فلم أجد في قاعة الانتظار الواسعة إلا رجلاً واحداً. كان منظر الكراسي الفارغة غريباً ومربكاً. فسألت الرجل.. أين المرضى؟ في العادة تكون قاعة الانتظار مكتظة، وهناك من يجلس على الدرج وعند المدخل. فأجاب الرجل.. كلهم ماتوا. سألتها:

ـ وأنا؟ هل متُ معهم؟

فأحنت رأسها فوق أذني، وقالت:

ـ لا.

سألتها:

ـ لماذا؟

فأجابت:

ـ يقول الأطباء.. إنها معجزة.!

* * *

قالت فايزة متطلقة الأسارير:

ـ لقد نمت ساعتين تقريباً.

فأغمضت عيني متمتماً:

ـ سأواصل النوم إلى الصباح.

ولم أستطع. كانت تلك هي الاستراحة الوحيدة قبل شوط جديد من الإعياء والأرق. مرت ليلة وليلة أمضيتها كلها مؤرَّقاً وهاذياً. كانت الدمامل تتكون في حلقي، وتتهيأ لاجتياح فمي وأنفي وشفتيّ. وكنت أتساءل، كلما هاجت قروحي، وزاد وهني، إن كانت الحياة حقاً مجيدة، وإن كان الإنسان فعلاً تلك الأعجوبة التي تحدث عنها سوفوكليس.

لقد حاجج أيوب ربه، أما أنا فمن أحاجج، وليس لدي إلا هذا اليقين البسيط والموحش: من الظلام جئت وإلى الظلام أعود.

١٩٩٦/٨/٢٢

المحتويات

ففي سنة ٢٧ ق.م غاص أحد أجدادي في حمأة طينية عميقة، ولم يكن بوسع أحدهم أن ينقذه. لم نجد حبلاً ولا قطعة خشب نمدُّها إليه. كذلك لم يكن لدى الكبار ما يكفي من النخوة والشجاعة، كي يخاطروا، ويمدّوا أيديهم إليه. غاص جسده كله، وبقي رأسه طافياً فوق الوحل. عيناه جاحظتان، ولونه أربد، ولسانه يتلجلج بكلمات وأناتٍ غامضة. هل سمع الباقون ما سمعت؟. كان واضحاً أنه يتهم أخاه. بل رنَّت في أذني هذه العبارة المتلجلجة.. «قتلني أخي.» لم يهتم أحد بما قال، وانشغل الأجداد الآخرون بإقامة بعض الطقوس. رُمي أمام وجهه المزرق رغيف من الخبز، وقطعة من اللحم المقدد، وبصلة بيضاء، وتميمة خشبية، ثم أشعلوا فتيلاً مبللاً بالزيت، وغرسوه بالأرض. تلت ذلك بعض الدمدمات الدينية، التي كانت تغطي حشرجات الجد الغارق، وتخمدها. انتهت الطقوس وتابعنا السير..